فخري قعوار

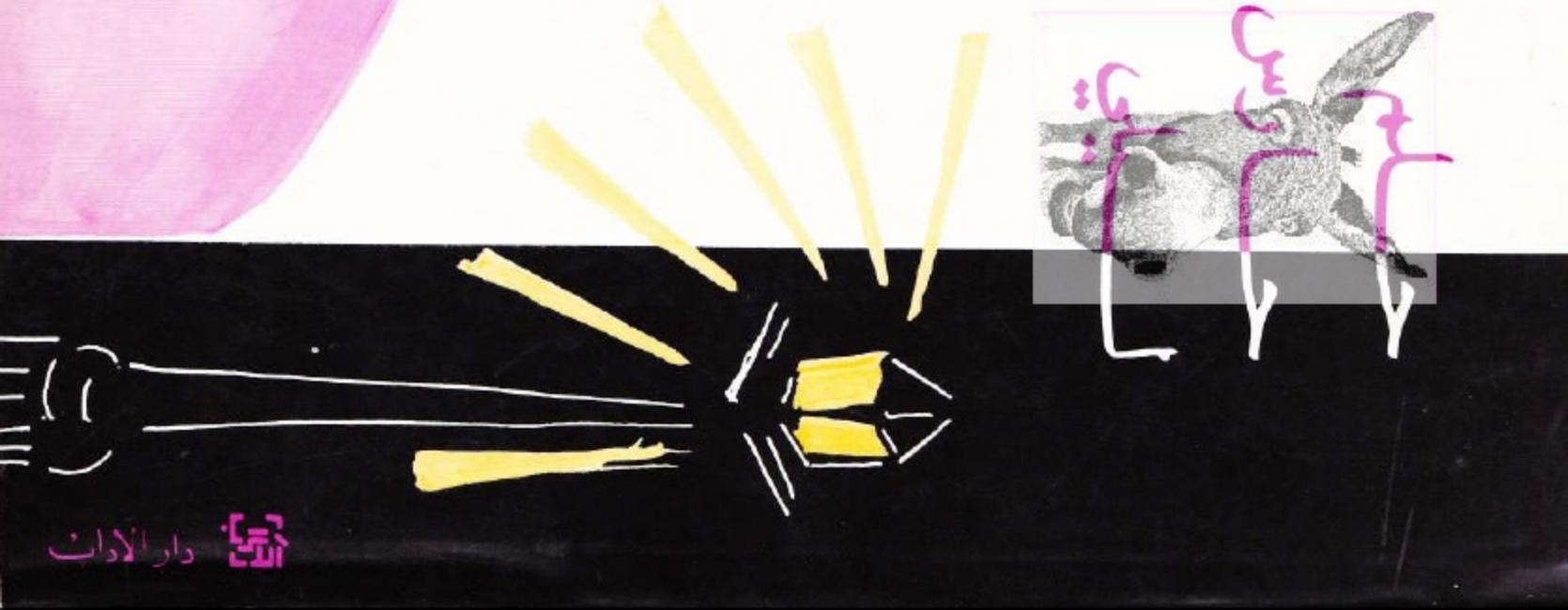

دار الآداب

حلم حارس ليليّ

قصص قصيرة منتخبة

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩٣

فخري قعوار
وهذه المختارات

بقلم: يحيى يخلف

ينتمي الكاتب الأردنيّ فخري قعوار إلى الجيل الذي بدأ يتكوَّن في منتصف الستّينات، الجيل العصامي الذي حفر في الصَّخر، في تلك المرحلة التي لم تكن سبل النشر فيها ميسَّرة، ولم تكن فيها المؤسسات والروابط والنوادي الثقافيّة منتشرة كما هو الحال هذه الأيَّام.

كانت تلك المرحلة تشهد حالة نهوض ثقافي، رافق النهوض السياسي للتجربة النَّاصريّة، وانتصار ثورة الجزائر، والإرهاصات التي أسفرت عن اندلاع الكفاح المسلَّح الفلسطيني في العام ١٩٦٥

وكان الجيل الذي ينتمي إليه فخري قعوار جيلاً مبادراً، يجد مرجعيّته في مدرسة الحداثة والالتزام، ويحاول أن يبحث عن ذاتيّته الثقافيّة في أفق ثقافي مفتوح، تهبّ عليه كلّ التيَّارات الأدبيّة والفكريّة، ففي تلك الأيَّام كانت (وجوديّة) سارتر، و(غريب) كامي، و(سوداويّة) كافكا، و(سأم) مورافيا، و(لامنتمي) كولن ولسن، و(سخط) جون اسبورن، و(واقعيّة) جوركي وشولوخوف. كلّ هذه التيَّارات والمدارس كانت تتنازع المثقَّف في الأردن وتثير الجدل حول قضايا الواقعيّة، والالتزام، وفلسفة الحرّيّة، وعزلة الإنسان. إلخ.

كانت المواهب الشابّة إذ ذاك تبحث عن فضاء، وتبحث عن أساليب وأشكال جديدة للتعبير، وتنغمس في التدقيق بالتفاصيل المتعلّقة بالحداثة والمعاصرة، وتثير الأسئلة الكبيرة مثل: علاقة التراث بالحاضر، علاقة الالتزام بالأدب، علاقة الاشتراكيّة بالفنّ، وعلاقة الحرّيّة بالتعبير. أسئلة تتعلّق بهموم المثقّف، وبما يتعيّن عليه أن يفعل للتعبير عن هموم محليّة وقوميّة وإنسانيّة.

تلك هي خلفيّة البدايات والمكوّنات الأولى التي صاغت وجدان فخري قعوار ووجدان أبناء جيله، فهم لم يخرجوا من معطف أحد، ولم يتعهّدهم أحد بالرعاية. نبتوا مثل أشجار البراري. صهرتهم تجاربهم الشخصيّة، واستوعبوا ثقافة إنسانيّة غنيّة بالدلالات والاجتهادات الفكريّة فهضموها وأغنوا بها تجاربهم.

كان فخري قعوار واحداً من كتّاب تلك المرحلة المشحونة بالتنوُّع، وقد تابعت بداياته وهو يكتب المقالة والقصّة، ويحاول أن يجد أسلوبه الخاصّ، وذاتيّته الثقافيّة.

لقد بنى ثقافته مدماكاً بعد مدماك من خلال متابعاته لكلِّ المدارس والتيّارات، وكنّا جميعاً مجموعة من القرويّين الذين يحلمون بالتزوُّد برؤية جديدة، والاتّصال بأسباب المعرفة خارج فضائنا الريفي.

لذلك، عندما أتيحت الفرصة لفخري قعوار بالسفر إلى القاهرة لمتابعة دراسته الجامعيّة، وجد الجسر الذي يوصله إلى منابع ثقافيّة غير المنابع الثقافيّة التي كنّا نجدها في الكتب والمجلّات، فقد اتّصل بالنوادي والصالونات الثقافيّة، وتعرّف على المسارح ومعارض الفنّ التشكيلي، واتّصل اتّصالاً مباشراً بالأدباء والفنّانين الذين كنّا نقرأ لهم

ونقرأ عنهم مثل نجيب محفوظ، يوسف ادريس، محمد عبد الحليم عبدالله، عبد الحميد جودة السحّار. إلخ. هذا الاتّصال الثقافي أثّر كثيراً في مسيرة فخري قعوار الإبداعيّة، وعكس أسئلة البحث عن الأسلوب، ومحاولة إيجاد النغمة الصحيحة للإيقاع الفنيّ.

وأظنّ أنّ تجربة فخري القصصيّة أخذت في التكوُّن والنضج أثناء دراسته في القاهرة، وقد وجد هناك المناخ الملائم للكتابة، ووجد المنبر المناسب للنشر، وظهر تأثير مكوّناته الثقافيّة التي أشرت إليها في قصصه الأولى، إذ انتقل من السرد الكلاسيكي إلى محاولة التجريب المعقول، والحداثة الواعية، وبدأت تظهر مضامين هذه القصص وقد غمست ريشتها بمداد التجارب الذهنيّة أو التجارب الواقعيّة.

ولعلّه بعد رحلة بحث طويلة وجد أسلوبه الخاص الذي يستطيع من خلاله أن يدلّل على اتّساع أفقه، وانفتاحه على الثقافة العالميّة من أجل التعبير عن خصوصيّة محيطه ومجتمعه، فحاول عن طريق التكثيف والتركيز وإلغاء التفاصيل الكتابة عن هموم كبيرة من خلال لحظة قصيرة، وتقديم مسألة محليّة من خلال واقع ذي ملامح وجوديّة أو عبثيّة، فاندمج المحليّ بالإنسانيّ، والمحسوس بالمجرَّد، والمعقول باللامعقول، والحلم بالكابوس، والفرح بالسوداويّة دون أن يفقد الكاتب شخصيّته، ودون أن يبتعد عن واقعه ومحليّته، ودون أن يذهب بعيداً في التجريد والتغريب.

القصّة عند فخري لا تعبأ بالتفاصيل الدقيقة التي تغتني بها الرواية. القصّة عنده لحظة مكثّفة، وأحياناً هي حركة أو مقطع من حدث أو ما يشبه المشهد المسرحي، فهو لا يهتمّ بالتفاصيل ولا

بوصف الشوارع أو وصف الأثاث والمقاعد والستائر، فلا مكان عنده للتفاصيل التي لا تخدم القصّة ـ الومضة أو القصّة ـ البرقيّة أو القصّة ـ الفكرة.

والحداثة عنده محاولة تقديم المضمون في شكل فنّي جديد. الشكل إذن يكتسب أهميّة خاصّة، ورحلة البحث عن شكل جديد مرّت عنده بمراحل عديدة، فانتقل من السرد الكلاسيكي إلى السرد الحديث، وحاول أن يكسر رتابة السرد بإحالة القارئ إلى الهوامش كشكل من أشكال التجديد (قصّة المكّوك). غير أنّه أقلع عن هذا بعد ذلك، وتوجّه كلّياً نحو الحداثة التي تلغي (المقدّمة) و(الحبكة) و(لحظة التنوير) التي هي شروط القصّة التقليدية، وقدّم شكلاً فنيّاً تقرأ فيه قصّة بلا مقدّمة أو حبكة تقليديّة. قصّة بلا تعريف مدرسي أو أكاديمي. قصّة هي جزء من زمن أو حياة أو استمراريّة.

أمّا المضمون فهو تعبير فنّي مصمّم بعناية، ومهيّأ بدقّة عن موضوعات مأخوذة من ثقافة الكاتب أكثر ممّا هي مأخوذة من تجاربه. وهذا لا يعيب القصّة شريطة ألّا تتحوّل إلى بحث فلسفي، وألّا تفقد تلك التلقائيّة التي نجدها في أغلب الأحيان في السرد التقليدي، وألّا تفقد عنصر المتعة الفنّية التي تضفي على القصّة القصيرة سمات جماليّة تنتقل من بين السطور إلى نفس المتلقّي وروحه.

تعالج قصص المجموعة موضوعات ذات صلة بالواقع مثل: ازدواجيّة الشخصيّة لدى بعض المثقّفين، الهزيمة المرّة والسخرية السوداء، القمع وخرق حقوق الإنسان، حلة التخلّف التي تعيشها

المجتمعات العربيّة، الحبّ كقوّة قادرة على صنع الحياة، المقاومة والكفاح المسلّح. إلخ.

نستطيع أن نتبيّن في قصّته (زوجة قاسم) مثلاً ذلك الانفصام في شخصّية المثقّف، والازدواجيّة المتمثّلة في ثنائيّة التنظير والممارسة. فهذا المثقّف الذي يعتبر نفسه مدافعاً عن تحرّر المرأة، يجد المتعة في انحناءة زوجته على قدميه وغسلهما في (طشت) الماء. تقول له المرأة: (إنّك هززت الشرق كلّه بمقالاتك، لكنّك ما تزال تحنّ لانحنائي على قدميك لأغسلهما).

وهناك قصص مبنيّة على عنصر غرائبي (لا وقت للموت) إذ تبدو المفارقة في موت الأمّ، ومواصلة البطل حبّه للمرأة التي ترفضها العائلة (انظري إليّ جيّداً. انظري في عمق عينيّ. لولا هذه الوردة الحمراء التي تضعينها على صدرك لوددت أن أموت انتحاراً. سنمضي الآن إلى المقبرة وندفن أمّي في رقدتها الأخيرة ونكتب على شاهد قبرها: هنا ترقد هيلانه. ثمّ نتعانق).

وتبدو الغرائبيّة أكثر فأكثر حين يتداخل الحلم بالواقع فلا ندري أيّهما أشدّ مرارة. (حلم حارس ليليّ)، فهذا الحارس الذي عرف عنه اليقظة والإخلاص في أداء الواجب، يفتخر بأنّه لم تُسجَّل طيلة فترة عمله في حراسة الشارع سرقة واحدة. وفجأة تأخذه سنة من النوم فيحلم أنّ هناك لصّاً تحدّثه نفسه بسرقة أحد البيوت، وأثناء ذلك يسلبه اللصّ عصاه التي هي سلاحه في الحراسة، وعندما يستيقظ من نومه يجد أنّ العصا قد سرقت بالفعل، فيقول لنفسه (هذه أوّل حادثة سرقة تقع في هذا الشارع منذ عدّة سنوات).

أمّا السوداويّة والعبثيّة واللامعقول فإنّنا نجدها في كثير من قصص المجموعة، فـ (ذو القرنين) يكتشف في لحظة من اللحظات أنّه حيوان له قرنان وحوافر مثلما يكتشف بطل كافكا (المسخ) أنّه تحوّل ذات صباح إلى دودة.

وفي (المطاردة) يتعرّض رجل للملاحقة دون أن يعرف سبب ذلك، وهي قصّة تعبّر عن الضغط النفسي الذي يتعرّض له مواطن ينتمي إلى بلدان العالم الثالث القمعيّة حيث تصادر الأحلام، فكأنّما القصّة كابوس. وكثير من أبطال قصص فخري يحاكمون ويطاردون دون أن يعرفوا التهمة المنسوبة إليهم، ففي شجرة الخير والشرّ يحاكم بطل الفصّة في جوّ (كافكاوي) لأنّه قطف الثمر من الشجرة وأعطاها للحمّالين وماسحي الأحذية والشحّاذين.

وفي (موت رجل ما) فإنّ البطل الذي يعيش تحت هاجس الكوابيس يرغب في امرأة يعشقها، ويرغب في أن تتاح له فرصة اختيار الطريقة التي يريد أن يموت بها.

ولعلّ قصّة (الأمّ) هي من أكثر القصص حدّة، ونستطيع أن نقرأ فيها الفاجعة السوداء، أو اللامعقول الذي لا يطاق. إنّها قصّة رمزيّة مشحونة بالدلالات لحالة الجدب والخواء والهزيمة.

ونلحظ هذا اللامعقول، بل ونلحظ العبثيّة أيضاً في قصّة (رأس البقرة).. عبثيّة ولامعقول في إطار من المحليّة. إنّها ترمز إلى محاولات قوى الظلام فرض حالة التخلّف على مجتمعاتنا.

إنّ التخلّف العربي كان سبباً من أسباب الهزائم والانكسارات السياسيّة والعسكريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، لذلك

فالسخرية من هذه المعضلة تأخذ نصيبها في قصص أخرى مثل (الشرف) و(حسبنا الله). وغيرها.

ويقترن حديث التخلّف، بالحديث عن قوى القمع حارسة هذا التخلّف، ففي قصّة (ممنوع لعب الشطرنج) يقوم الرجل الغامض (ذو النظّارة السوداء) باقتياد المواطن (خ) ليمنعه من لعب الشطرنج، لأنّ لعبة الشطرنج هنا تعني تمرين العقل، وتمرين العقل على التفكير يجعل المواطن يكتشف الواقع الفاسد، واكتشاف الواقع الفاسد يؤدّي إلى التمرّد عليه، والتمرّد يعني الثورة، والثورة تعني التغيير. و. ولذلك فإنّ الرجل ذا النظّارة السوداء لا يكتفي بمنع المواطن (خ) من لعب الشطرنج، وإنّما يأمره بعدم تدريب زملائه على هذه اللعبة أيضاً.

وفي السياق ذاته تأتي قصّة (الكلب) لترمز إلى تلك القوى التي تهدّد الإنسان وتخيفه، وتعذّب روحه، وكذلك قصّة (الإبريق) التي تحاول فيها تلك القوى مصادرة العقل من أجل ألاّ يكون هناك خروج على المألوف.

أمّا قصّة (بائعة الحليب) فهي ترمز للظالم الذي يبحث عن ذريعة لكي يفجّر نبعاً من الدماء.

ويقدّم لنا الكاتب في هذه القصص شخصية امرئ القيس مرّة كشهيد، ومرّة أخرى كدون كيشوت.. دون كيشوت جديد يسخر من تعلّقنا بأمجاد الماضي ونسيان الحاضر، ويسخر من الركون إلى انتصارات الخيال وعدم الالتفات إلى مرارة الواقع. يقول المأمور لامرئ القيس في قصّة (التحقيق): (هناك مائة وخمسون مليوناً من

أقربائك لكلّ واحد منهم ثأر عند العدوّ، ومع ذلك لا يفكّرون بجاهليّة مثلك، ولا يحملون على أكتافهم سوى بنادق الصيد)، فيخرج (امرؤ القيس ـ دون كيشوت) متهدّلاً حزيناً، يجرّ خطواته بتثاقل، وكأنّه يحمل على كاهله أعباء الدهور. لكن على الرغم من ذلك، فإنّ فخري قعوار في قصصه هذه لا يدعو إلى التسليم بالأمر الواقع، وإنّما يدعو إلى المقاومة. وهو يمجّد المقاومة، وخاصّة المقاومة الفلسطينيّة في قصص (الرجال يمرّون من هنا) و(أيّوب الفلسطيني). في هذه القصّة الأخيرة تشدّنا الشفافيّة في نهايتها. وربّما تتحوّل هذه الشفافيّة على الرغم من المأساة إلى تفاؤل وأمل بمستقبل الإنسان.

تلك هي الجملة المفيدة التي تقولها لنا قصص فخري قعوار على الرغم من المرارة والسوداويّة أحياناً، واللامعقول أحياناً أخرى. الإيمان بمستقبل الإنسان ووقوفه بقوّة إلى جانب قضايا الإنسان العربي المثقل بالمرارة والإحباط، والذي يبحث عن بصيص أمل ويتحدّى اليأس بقوّة الحياة.

إنّ الشمس تبزغ من الشرق، وأنّه لا وقت للموت، وسوف يستمرّ المواطن (خ) في ممارسة لعبة الشطرنج، وتمرين زملائه على لعبها. وستقول النسمة لأمّ صابر: ابنك الشهيد ذاهب إلى الوطن. والوطن باق.

تلك هي الرسالة التي ستقولها لنا القصص بعد أن نفرغ من قراءتها.

إنّنا أمام نصوص كتبت في مراحل مختلفة، وتفاوتت في المستويات الفنّية: تعبيراً وأسلوباً، وتأثّرت بشكل واعٍ بالتيّارات الثقافيّة لزمنها.

وإنّنا أمام كاتب غير محايد، ينحاز إلى المستقبل، وإلى قضايا الفقراء والبسطاء والمناضلين من أجل الحريّة والديموقراطيّة، ويختار طريقته وأسلوبه في التعبير عن مواقفه الثقافيّة والسياسيّة، ورؤيته الجماليّة.

وبعد، فأنا سعيد كلّ السعادة بصدور هذه المختارات عن دار الآداب التي طالما تفيّأنا ظلالها.

وهذه المختارات تغطّي مراحل مختلفة من عطاء فخري قعوار. وأقول باعتزاز إنّني قرأت هذه القصص قراءة المستمتع الذي يبحث فيها عن النقاط المضيئة لا قراءة الناقد الذي يجهد نفسه في البحث عن الهنات والسلبيّات.

وأرجو أن يكون صدورها مقدّمة لنشر نماذج من القصّة الأردنيّة التي هي جزء لا يتجزّأ من حركة القصّة العربيّة المعاصرة.

تونس

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الشرف

عندما ألقوا القبض عليها، أجلسوها في وسطهم، وقال كبير العائلة:

ـ الآن هدأت نفوسنا!

قال رجل في فمه سنّ ذهبيّة:

ـ ماذا نفعل بها الآن؟

كانت الفتاة منفوشة شعر الرأس، محمرَّة العينين، لاهثة الأنفاس.

قال كبير العائلة:

ـ بالشباري نفصل رأسها مثل النعجة.

قال رجل ذو لحية سوداء:

ـ التي تنتهك شرف العائلة يجب أن تحرق حيّة في ساحة عامّة.

قال ذو السنّ الذهبيّة:

ـ وأد البنت منذ الطفولة المبكرة، من أشرف عادات العرب!

قال ذو اللّحية السوداء:

ـ لقد تطوّر الوأد إلى القتل بالشباري، ثم تطوّر إلى الرمي بالرصاص.

قال كبير العائلة:

ـ إنّني أفضّل القتل بالشبرية، فتتلذّذ بمنظر الدم الجاري.

قال شاب ذو شاربين مفتولين:

ـ سأشرب من دمّها الجاري.
قال ذو السّن الذهبيّة:
ـ سأصنع من جلدها ربابة.
قال ذو اللّحية السوداء:
ـ سأجعل من عظامها خوابي للخمر.
قال رجل سمين ذو صوت رفيع:
ـ أنا أهوى أكل لحم الداعرات.
قال كبير العائلة:
ـ يجب أن نجمع نساء العائلة وبناتها ونذبحها أمامهنّ.
قال ذو السنّ الذهبيّة:
ـ إنهنّ يفرحن مثل الرجال لسفك دم بنت تنتهك شرف العائلة.
قال ذو الشاربين المفتولين:
ـ سيزغردن..
قال ذو اللّحية السوداء:
ـ وسيغنّين.
قالت الفتاة المنهكة:
ـ ألا تقبلون التوبة؟
قال كبير العائلة:
ـ شرف البنت مثل عود الثقاب، لا يشتعل مرّتين.
قال ذو السنّ الذهبيّة:
ـ أنتِ أفعى.
قال ذو الشاربين المفتولين:

ـ لولا خشيتي من الخالق، لقلت إنّك لقيطة.

قال الرجل السمين ذو الصوت الرفيع:

ـ اذبحوها. هيّا اذبحوها.. فأنا جائع.

قال ذو الشاربين المفتولين:

ـ اذبحوها. هيّا اذبحوها. فأنا ظمآن.

قال ذو اللّحية السوداء:

ـ بسملوا قبل الذبح.

قالت الفتاة المرهقة:

ـ انقذوني. اقبلوا توبتي!

هبَّ كبير العائلة، واستلَّ شبريّته، وطعنها في صدرها، ولحس الدم عن طرف الشبريّة، ثمّ أعادها إلى غمدها، وقام الرجال بتفتيت جسدها بشباريهم، وهم يزغردون ويردِّدون لحناً مرحاً.

١٩٨٠/٧/١٤

حسبنا الله

قال كبير القوم، وقد علا بقامته بين الآخرين، حين ارتقى فوق صخرة ترقد باسترخاء في امتداد الصحراء:

ـ لم أعد أعرف الاتّجاهات.

قال شاب يرتدي قمبازاً:

ـ لننظر إلى الشمس.

قال كبير القوم:

ـ كانت الشمس نافعة في معرفة الاتّجاهات قبل أن يتغيَّر مسارها، أما وقد صارت تطلع مرّة من عن يميننا، ومرّة عن يسارنا، ومرّة من خلفنا، ومرّة من أمامنا، فلا بدَّ لنا من البحث عن سبيل أنفع غير الشمس!

قالت فتاة متحجّبة بغطاء جلديّ على وجهها، مثقوب عند العينين:

ـ لكن الشمس لم تغيِّر مكان طلوعها.

قالت الفتاة ذلك، بصوت رفيع، فبدا الذهول على الوجوه، واستدارت الرؤوس نحوها، وارتسمت على وجه كبير القوم علامات الهلع والاستهجان، وقال:

ـ صوت المرأة عورة!

قال رجل ذو لحية رفيعة طويلة:

ـ لو كانت هناك طريقة لكتم أصوات النساء، لارتحنا نحن معشر الرجال من عناء كثير.

قال رجل ملثّم يركب جملاً:

ـ فلتخرس المرأة التي تجرؤ على الكلام في حضرة الرجال.

قالت عجوز شمطاء، بصوت مترهِّل:

ـ الله يرحم أيّامنا، عندما كانت المرأة تعرف قدرها، وتعرف أنّ الرجل تاج رأسها.

قال شاب متورّد الوجه، منتفخ الأوداج:

ـ يعلّموننا في المدارس أنّ الشمس تطلع من الشرق، ولم يقولوا لنا إنّها ستغيّر مكان طلوعها.

قال فتى ممشوق القوام، سمهريّ القدّ، بصوت يقترب من هديل الحمام:

ـ لتشرق مثلما يحلو لها، فهذا لم يعد مهمّاً الآن!

قال كبير القوم متهلّلاً:

ـ أحسنت أيّها الفتى، لا فُضَّ فوك، لتشرق الشمس مثلما يحلو لها، فالمهمّ الآن أنّنا لم نعد نعرف الاتّجاهات في هذه الأرض البلقع.

تنحنح المستشار الجالس قرب رِجْلَيْ كبير القوم، ورفع رأسه الكبير وقال:

ـ أنا أقترح أن يكون رائدنا الاتّكال على الله.

فسرت همهمة بين الناس، وردَّد بعضُ الأصوات:

ـ حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل.

وأشار كبير القوم بيده، فعاد الصمت، وأضاف المستشار:

ـ ولهذا، فإنّني أقول، إنّ علينا أن نمشي في أيّ اتجاه، ومن كان الله وكيلاً له، فلن يضلّ.

وارتفعت زغاريد النساء، وعلا تصفيق حاد، وتململ القوم استعداداً للرحيل.

١٩٨٣/١/٥

مشهد

أشاحت بوجهها عنه وقالت:

ـ سأخرج من البيت. سأخرج. ولكن.

قال:

ـ ولكن ماذا؟

قالت:

ـ ولكن أخشى أن تسيء تربية الأولاد، وأخشى أن لا تعتني بتدريسهم، وأخاف على حياتهم من السيّارات إذا خرجوا إلى الشارع.

قال:

ـ اطمئنّي. فأنا أعرف واجبي نحوهم.

قالت:

ـ والبيت. من سيرعى شؤون البيت في غيبتي؟

قال:

ـ اطمئنّي أيضاً.

وسادت فترة من الصمت المملّ، ثمّ أدارت وجهها نحوه، وبدون أن تنظر إليه قالت:

ـ سأخرج.

وضغطت على الكلمة أكثر، عندما أعادتها:

ـ سأخرج.

ثمّ صرخت:

ـ سأخرج. سأخرج!

وألقت بجسدها فوق الكنبة، وشرعت في البكاء.

قال لها:

ـ ما معنى بكائك الآن؟

نظرت إليه بعينين مغسولتين بالدموع، ولم تقل شيئاً.

أضاف:

ـ ما معنى هذا البكاء بعد أن انتهى كلّ شيء؟

زعقت في عينيه وجبينه:

ـ من قال لك إنَّ كلَّ شيء قد انتهى؟

قال بنبرات هادئة:

ـ أنا قلت ذلك، وأنت أيضاً قلت ذلك!

زعقتْ من جديد:

ـ لا البيت بيتي، والأولاد أولادي، وأنا أحبّ بيتي أكثر منك، وأحبّ أولادي أكثر منك!

وسكتت قليلاً، ثمّ قالت بدون زعيق:

ـ وأنت. من سيصنع لك قهوة الصباح؟ من سينظّف لك منفضة السجائر؟ من سيغسل ملابسك؟ من سيعدّل لك من وضع ربطة عنقك؟

وعادت تزعق:

ـ مَنْ؟ مَنْ؟ تكلّم!

لكنّه لم يتكلّم.

قالت:

ـ لِمَ لا تتكلَّم؟

وأضافت:

ـ إذا كنتَ تريدني أن أخرج، فسأفعل، نعم، سأفعل، ولكن.

نظر إليها، ولم يتكلَّم.

قالت:

ـ تريد أن تقول لي: لكن ماذا! سأقول لك: إذا خرجتُ، فلن أعود. لن. لن أعود!

نظر في الأرض ولم يتكلَّم.

نظرت في الأرض ولم تتكلَّم.

وساد صمت طويل. طويل.

١٩٨٠/٤/٢٨

رأس البقرة

ما كان أحد يتوقّع مجيئه!

وحين رأوه ساد صمت عميق في كلّ أرجاء الساحة الترابيّة وعلت الوجوه دهشة وذهول، وظلّ خوار البقرة داخل الزير، هو الصوت الوحيد الذي كان يتناهى إلى الآذان، مكبوتاً كزئير أسد جريح.

كان في العيون سؤال واحد: كيف جاء هذا الرجل، ولماذا جاء في هذا الوقت بالذات؟

لكنّ الرجل استعرض الوجوه بتمهّل، ثمّ ابتسم عن سنٍّ ذهبيّة، فامتدّ شاربه مع امتداد شفته العليا، وحكّ ذقنه وقال:

ـ أراكم لم تفعلوا شيئاً!

لم ينطق أحد بكلمة، فأضاف الرجل:

ـ مشكلة بسيطة كهذه، تستعصي عليكم؟

تنحنح مختار من الجهة الشرقيّة للقرية وقال:

ـ فكّرنا بعشرات الطرق لإخراج رأس البقرة من الزير، فلم نوفّق إلى شيء مناسب.

وتنحنح مختار آخر من الجهة الشرقيّة وقال:

ـ نريد أن ننقذ البقرة من الاختناق!

وقال مختار من الجهة الغربيّة للقرية:

ـ ولا نريد أن نكسر الزير!

فابتسم الرجل من جديد، وأطلّت من عينيه سخرية واستهانة وقال:

ـ كان يجب أن تحلّوا مشاكلكم بأنفسكم، وخاصّة إذا كانت المشكلة كهذه لا تحيّر، ولا تحتاج إلى تفكير طويل.

قال مختار آخر من الجهة الغربيّة:

ـ سعادتنا بمجيئكم لا تقلّ عن سعادتنا بسداد رأيكم.

أومأ الرجل برأسه محيّياً وشاكراً، ثمّ قال:

ـ لقد قادتني الصدفة إلى قريتكم، لكنّي أتساءل ماذا كان سيحدث لكم، لو أنّ هذه الصدفة لم تحدث؟

قال مختار من الجهة الشرقيّة:

ـ كنا سنفقد الزير والبقرة معاً!

نظر الرجل إلى رأس حذائه اللامع، وقال:

ـ أيّها الرجال!

فردّ أكثر من صوت:

ـ نعم.

فقال الرجل:

ـ هل فكّرتم بقطع رأس البقرة؟

قال بعض الحاضرين:

ـ يا لها من فكرة مدهشة!

وهبّ شاب متحمّس، واستلّ شبريّته وقطع رأس البقرة، فسال دم كثير، لطّخ الزير.

قال الرجل باهتمام:

رائع. والآن علينا أن نكسر الزير كي نخرج رأس البقرة من الداخل.

فاندفع الشابّ المتحمّس نفسه، وكسر الزير، فظهر رأس البقرة، وشرع الحاضرون بالتصفيق.

همّ الرجل بالذهاب، لكنّ المخاتيراستوقفوه، وألحّوا عليه بتناول الطعام معهم، وأكّد له أحدهم أنّ الوجبة ستكون مؤلّفة من المنسف، غير أنّه أصرّ على الذهاب، لأنّ ثمّة مشاكل أخرى في قرى أخرى تنتظر وصوله!

الابريق

حين مات أبوه، كان قد أنجب خمسة أولاد، أصغرهم في الثامنة، وأكبرهم في العشرين.

وحين مات أبوه، استلم «الورثة» بصفته أكبر أبناء المرحوم، وبدأ دوره في الحرص عليها سالمة من الأذى، إلى أن يحين الوقت ليسلّمها لأكبر أبنائه من بعده.

وكانت «الورثة» عبارة عن ابريق زجاجي كبير، يبلغ طوله خمسة أضعاف قطر دائرة قاعدته، يزيّنه ماء الذهب، والخرز الأزرق عند «العنق»، وحول «الزنبوعة».

وهو لا يذكر أيّ واحد من أجداده الذي شرع بهذا التقليد في الأسرة، بل إنّ أباه المرحوم نفسه لا يذكر شيئاً من هذا، لكنّه يعرف أنّ الابريق صار جزءاً من ميراث العائلة، وأنّ له قداسة واحتراماً متوارثين، وأنّ وجوده في البيت المتوارث أيضاً، يعني لكلّ أفراد الأسرة فألاً طيّباً يستبشرون به.

وكي يحافظ على هذه «الورثة» التاريخيّة، اتخذ اجراءات احترازيّة مشدّدة، من شأنها أنّ تحول دون كسر الابريق، ودون احتمال إصابته بأيٍّ مكروه.

وذات يوم، جمع أبناءه الخمسة، وقال لهم:

ـ أنتم تعرفون مكانة هذا الابريق، وأهميّة المحافظة عليه.

وأشار إلى ابنه الأكبر وأضاف:

ـ وأنت بالذات، عليك أن تكون أكثر حرصاً من غيرك على سلامة الابريق.

وفي يوم آخر، جمع أبناءه مرّة ثانية، وأشهر عليهم مسدّسه قائلاً:

ـ لتحذروا دائماً.

وبلع ريقه، وتأمّل في وجوه أولاده الشاحبة من الخوف، وقال:

ـ لتحذروا دائماً، وليكن الابريق مرسوماً في خيال كلّ منكم. فإن كُسر، كان ذلك نذير شؤم، وانهياراً في بناء الأسرة.

ودنا من الأولاد أكثر، ورفع فوهة المسدّس قليلاً عن مستوى رؤوسهم، وأطلق رصاصة في جدار المنزل، فارتعب الأولاد، وازداد شحوب وجوههم، ونظر كلّ واحد منهم نحو الآخرين، ليطمئنّ أنّ مكروهاً لم يصب أيّاً منهم.

وأخفض الرجل مسدَّسه، وجعل فوهته نحو الأرض، وقال لأولاده، وهو ينظر نحو الجدار:

ـ انظروا إلى هذا الثقب.

فالتفت الأولاد إلى الثقب الذي أحدثه المسدَّس في الجدار، وأضاف الأب:

ـ سأفتح ثقباً مثل هذا في رأس من يكسر الابريق!

لملم الابن الأصغر شجاعته المتساقطة وقال:

ـ ولكنّك ترعبنا يا أبي، ترعبنا كثيراً.

وتشجّع الابن الذي يكبر الصغير وقال:

ـ ترعبنا ونحن نحيط الابريق بكلِّ رعاية، ونحافظ عليه مثلما نحافظ على حدقات عيوننا!

قال الابن الأكبر:

ـ إرهابك لنا يدلّ على أنّك تفضِّل الابريق علينا جميعاً!

وبيده اليسرى، صفع الأب الابن الأكبر، صفعة ظلّت ترنّ في رأسه لعدّة أسابيع، وقال بحدّة:

ـ قلت لك مرّة، إنّ عليك أنت بالذات، أن تكون أكثر حرصاً من غيرك على سلامة الابريق، وأقول لك الآن، إنّ عليك أن تكون شديداً وشرساً كي تستحقّ استلام «الورثة».

واحتدّ الأب أكثر وقال:

ـ عليك أن تفهم، أنت دون سواك، أنّ العنف مطلوب.

قال الولد الأصغر:

ـ لماذا؟

التفت الأب إليه وقال:

ـ اخرس أنت.

وعاد فالتفت نحو ابنه الأكبر وقال:

ـ العنف مطلوب قبل وقوع المحذور.

وتراجع خطوة إلى الوراء، وهدأت نبرات صوته، وابتسم ابتسامة كالحة، وقال بمرارة الحنظل:

ـ ما قيمة العنف مثلاً، بعد أن يكسر واحد منكم الابريق؟

المطاردة

نظر إليّ بعينين واسعتين، يطفح الهياج منهما، وأدار رأسه إلى اليمين وإلى اليسار، ثمّ هزَّهُ بحركة مباغتة، وحدقتا عينيه المبحلقتين منزرعتان في وجهي وفي جسدي الذي تضاءل ونخر الرعب في مفاصله.

سال مخاط لا لون له من فتحتي أنفه المتذبذبتين، ثمّ شخّر، فأحسست أنّه غير متردّد في الهجوم عليّ.

سرت خطوة إلى الوراء، فسار خطوة إلى الأمام، وطرفا قرنيه يبدوان لامعيْن كالمسلاّت المصقولة.

عدت وتراجعت بقدمين مرتجفتين خطوة ثانية، ثمّ أتبعتها بخطوة ثالثة، فتقدّم الثور خطوة واحدة، وانكمش بجسده الضخم متحفّزاً للانقضاض.

كدّت أتراخى أكثر، وأستلقي تحت رجليه، لكنّني قلت لنفسي: «لا بدّ من محاولة للهرب»، فاستدرت، وركضت أمامه، لكن وقع حوافره ظلّ يرنّ في أذني طيلة الوقت، حتّى وجدت نفسي في غابة معتمة ذات أشجار متشابكة.

اختفى الثور، وهدأت حركته، فعرفت أنّه يئن من الإمساك بي، ولم يبق منه سوى عينيه اللتين كانتا تلتمعان وتدوران في موقعيهما.

في هـذه الأثناء، سمعت أصـوات عيارات نـاريّة تُـطلق في مكـان قريب، وعشرات العيون تحاصرني وتلتمع وتـدور في مواقعهـا. مرّت لحظة صمت، علا فيهـا صرير منـظّم ومتواصـل لأصناف مختلفـة من الحشرات.

صاح رجل وقال لي:

ـ من الخير لك أن تستسلم.

فقلت من خلال أنفاسي اللاهثة:

ـ ألا تلاحظ أنّني لا أقاوم؟

قال آخر، ذو صوت شبيه بصوت الجاروشة:

ـ نريد أن نسمع منك.

قال ثالث:

ـ أعلن لنا عن استسلامك.

قلت بهدوء:

ـ ألا ترون أنّني محاصر تماماً؟ ولم تعد هناك فرصة للمقاومة؟

قال رجل لم أسمع صوته من قبل:

ـ أنت مراوغ.

أضاف غيره:

ـ من الأفضل لك أن تستسلم ولا ضرورة للمراوغة.

قلت بصوت مرتفع:

ـ أيّها السادة، أنا لا أراوغ، وإنّما أنتم جبناء.

فأطلق أحد المسلّحين رصاصة في الهواء، وقـال بنبرات حـادّة تشير إلى نفاد الصبر:

ـ أنت حيوان وقح، وإذا لم تستسلم سأطلق عليك النار.
وأكمل الآخر:
ـ أو نطلق عليك هذا الثور ليحملك على قرنيه.
قال ذو الصوت الخشن:
ـ ها. وما رأيك؟

أمام فوهات البنادق، والقرنين المصقولين، والعيون الملتمعة في ظلام الغابة، لم أكن أعرف ما هو رأيي على وجه الدقّة. وفرص الهرب تلاشت، وأصبحت في خاتمة هذه المطاردة لا أملك سوى الطاعة. وعندما أعلن لهم عن استسلامي يظنُّون أنّني مراوغ ومحتال. إنّهم جبناء. جبناء.
ـ ليس لي رأي أيّها السادة.
وأضفت:
ـ إذا كنتم تريدون منّي أن أستسلم، فأنا جاهز.
قاطعني أحدهم قائلاً:
ـ أنت كاذب.
لم أعبأ بما قال وأضفت:
ـ وإذا كنتم تريدون أن يحملني الثور فوق قرنيه، فأنا جاهز.
وقاطعني الرجل نفسه وصاح:

ـ أنت كاذب، كاذب، إنّك تحمل قنبلة يدويّة تريد تفجيرها في وجوهنا.
وللمرّة الثانية، لم أعبأ بما قال وأضفت:
ـ وإذا أردتم قتلي، فها أنا ذا أمامكم!

ودارت همهمات غير واضحة، بين الرجال المسلّحين، ثمّ شخر الثور عدّة مرّات متتالية، وعلا خواره فوق همس الرجال، ثمّ ساد صمت قصير.

قال أحدهم:

ـ لم يعد الثور راغباً في تدنيس قرنيه بدمك، وقرّرنا إطلاق النار عليك.

قال آخر:

ـ ماذا تطلب قبل أن نطلق النار على جمجمتك الفاسدة؟

قلت:

ـ أريد أن أقول لكم إنّني لم أقترف ذنباً يوجب قتلي.

فقال ذو الصوت الخشن:

ـ ما تزال تنكر أفعالك السوداء!

قلت:

ـ إنّني بريء كطفل.

فتصاعد خوار الثور وصاح أحد الرجال:

ـ أنت حقير كصرصار، وملعون كأفعى، ومكانك تحت الـ .

وظلّ خوار الثور يتعالى أكثر فأكثر، حتّى قال أحد المسلّحين:

ـ سنطلق عليك النار كلّنا مرّة واحدة، وننهش لحمك، ثمّ نلقي ببقاياك العفنة للوحوش البرّيّة.

ثمّ هيّأوا أسلحتهم لإطلاق النار.

١٩٧٦/١١

موت رجل ما

كنت مشدوداً إلى دفء جسدها، حينما رويت لها حكاية الثور الذي طاردني، والرجال ذوي العيون اللامعة، الذين حاصروني داخل عتمة الغابة. وكانت هي تقود السيَّارة وسط الليل والضباب، والرذاذ المتساقط على الزجاج الأماميّ. كنت أحسّ ببخار الجسد الدافئ، يتسلّل من مسامات جلدها. لم يكن جلدها ناعماً كما ينبغي لجسد ممثّلة معروفة أن يكون. فكان ملمسه قريب الشبه من ملمس ثمر الدرّاق الطازج.

ـ أيّتها الشقيّة! كيف ينبعث هذا البخار من جلدك، وتقودين السيّارة بمهارة سائقي سيّارات الأجرة؟ إنّ في أحشائك بركاناً يمور بالنفط المشتعل.

قلت لها ذلك، لكنّها لم تقل شيئاً. نظرت إلى ماسحتيْ الزجاج، تتحرّكان بتثاقل، وتدفعان أمامهما حبّات الرذاذ الصغيرة، فينكشف ضوء السيّارة فوق أمواج الضباب المتدافعة. وكانت موسيقى هادئة، تنبعث من المذياع، فتختلط بصوت المحرّك الخشن.

كان بخار جلدها، يسري فوق الوبر الناعم النابت فوق أذنيّ، فينتفض جسدي وتكسوه قشعريرة النشوة.

ـ أيّتها الشقيّة! لا أريد أن أقضي عمري تحت سطوة الكوابيس. ولا أريد أن تكون حياتي مجموعة من المشاهد التمثيليّة، فأموت مثل ممثّل يؤدّي دوراً فوق خشبة مسرح! كفّي عن تأدية الأدوار الرديئة،

وانظري كيف تكون الحياة بدونها جميلة وعميقة.

قلت لها ذلك أيضاً، لكنّها لم تقل شيئاً. التفتت نحوي، فكانت عيناها مضيئتين، ثمّ عادت إلى النظر في مساحة الشارع الخالية من الضباب.

كنت سأقول لها: لو أنّني ابن للنهر والصخرة، لاستطعت اختراق حاجز الموت والرغبة.

وكنت سأقول لها: لو أنّني أعرف لغة العصافير، لغنّيت غناء متّصلاً للدحنون والزعتر البرّي.

وكنت سأقول لها: ما قيمة الشمس بدون حرارتها ونورها؟

وقرّرت أن أقول: يا قشر الدرّاق الذي يصهل تحته الشبق، أريد أن أقف في الناس، لا يسترني شيء سوى جلدي، معلناً عن موتي بملء فمي وشراييني، ليقال في بلاد بعيدة، إنّ ثمّة رجلاً ما، كان لجلده لون ما، وقف عارياً في مكان ما، ومات بطريقة ما.

كنت سأقول ذلك كلّه، لكنّني تريّثت وقلت:

ـ اللصوص وحدهم يحبّون هذا الضباب الكثيف!

التفتت نحوي بعينيها المضيئتين لحظة وقالت:

ـ والعشّاق!

تعالى صوت الموسيقى، متراقصاً بتداخل رشيق. ورأيت ضوءاً أحمر يتراقص أمامنا بجذل رتيب.

ـ إنّها الشرطة! لا بدّ أنّ هناك حادثاً ما، خفّفي السرعة.

فَفَعَلَتْ كذلك، وخَفَضَتْ من صوت المذياع، حينما رأيتُ شرطياً

يحمل إشارة فسفوريّة يحدّد لنا بها اتّجاه السير.

كانت هناك سيّارتان ينبعث منهما الضوء الأحمر المتقطّع، وعدد من رجال الشرطة، يقفون متباعدين حول جثّة رجل ملقاة في حفرة مليئة بالماء، فلم يكن يبدو منه سوى رجليه، ومعطفه البالي.

قالت:

ـ أظنّ أنّه في الستّين.

قلت:

ـ أظنّ أنّه حارس لإحدى العمارات الكبيرة.

قالت:

ـ لا بدّ أنّه كان يروي الحكايات لأحفاده الصغار.

قلت:

ـ لا بدّ أنّ إحدى السيّارات النزقة صدمته ثمّ فَرّتْ.

قالت:

ـ ربّما كان فقيراً، ويضع تحت معطفه رغيف خبز.

قلت:

ـ ربّما مات غريباً في أرض لا يملك شيئاً منها.

قالت:

ـ ما أبشع النهايات المفاجئة!

كان هناك شرطي آخر، يحمل إشارة فوسفوريّة، يحدّد لنا بها اتجاه السير. وحينما غِبْنَا داخل الضباب، توقّفنا. فرفعتُ صوت الموسيقى، وأطبقتُ على شفتيها في قبلةٍ جائعة.

١٩٧٧/١٢

الثأر

عــلا رغـاؤه، وتصلّبـت قــوائمــه، وشخص بعينيــه في جــدار الاسطبل، وأبى أن ينيخ.

تناول صاحبه عصا غليظة، وانهال على قفاه ضرباً، لكنّ الجمل لم يشأ أن يستجيب، وظلّ واقفـاً كالـطود، فعاود صـاحبه الضرب عـلى قفاه، وعلى رأسه، وبين عينيه، وعلى جانب سنامه، لكن الجمل ظلّ واقفاً على قوائمه الأربع المتصلّبة، يرغو ويشخص بعينيه نحو الجدار، مكابراً صابراً، لا يئنّ ولا يتلوّى ولا يشكو.

قال الجمل لنفسه:

ـ الصبر طيِّب.

وقال صاحبه لنفسه:

ـ جمل عنيد، سأعمل على ترويضه.

وأضاف الجمل لنفسه:

ـ لو أنّي ركعت على ركبي الأربع، لاستراح هذا الرجل المتسلّط!

وأضاف صاحبه لنفسه:

ـ الرؤوس القاسية لا أحبّها.

وعـاد الرجـل من جديـد، يضربـه بضراوة وانـدفـاع، حتّى شـجّ رأسه، وسال الدّم من فوق الوبر المموّج بين أذنيه.

لهث الرجل، وتـلاحقت أنفاسـه بسرعة لم يعهـدها من قبـل، ثمّ ألقى العصا في ناحية من الاسطبل، وخرج.

كان الجمل يشعر بألم شديد في رأسه وببوادر غيبوبة، فالأشياء بدت له في غير وضوحها السابق، والقهر في داخله يتعاظم إلى حدّ لم يعرفه في حياته. غير أنّه عاد وقال لنفسه:

ـ الصبر طيِّب.

ثمَّ أضاف:

ـ لكنّ الصبر يظلّ طيِّباً إلى حدّ، ثمّ يبدأ التهيُّؤ للانفجار.

وتراءت له خيالات غائمة على الجدار ثمّ أكمل:

ـ لكنّني سأثأر!

وصرف بأسنانه، ثمّ قال لنفسه:

ـ سأثأر. سأثأر!

وأرخى قائمتيه الخلفيَّتين، وبدأ جسمه الكبير يهبط من الخلف، ثمّ أرخى قائمتيْه الأماميّتيْن، إلى أن استقرَّ فوق الأرض المغمورة بالتبن والقصل والبعر.

عادت روحه إليه، شيئاً فشيئاً، وألصق عنقه الطويلة بإحدى ركبتيه، وأغمض عينيه، وراح في إغفاءة عميقة.

ومرّ وقت غير قصير، والجمل صابر، يتحيَّن الفرصة للإغارة على صاحبه الذي أنزل به ضربات لم يقدر على نسيانها، لكنّه صار يظهر له طاعة غير معهودة به، حتّى إنّ الرجل قال مرّة:

ـ العصا مفتاح الطاعة!

وأضاف:

ـ وصدق من قال إنّ العصا لمن عصى!

وفي إحدى الأمسيات، تسلّل الجمل من الاسطبل، واتّجه إلى فراش صاحبه، المكوّم فوقه الغطاء، وانهال عليه بخُفِّهِ الأيمن مرّة، وبخُفِّهِ الأيسر مرّة أخرى، وبرأسه مرّة ثالثة، وبأسنانه مرّة رابعة، حتّى شعر براحة تسري في شراينه وعظامه، وعاد إلى الاسطبل محاولاً إبداء وداعة وبراءة.

وعندما طلع الصباح، ارتجّت قوائم الجمل ذعراً، حين رأى صاحبه يدخل من الباب، يريد اقتياده من رسنه كالمعتاد وهو يقول:

ـ يبدو أنّك كنت جائعاً في الليلة الماضية، عندما نهشت فراشي.

صعق الجمل لما سمع، وتراجع قليلاً، ثمّ تحفّز للانقضاض على صاحبه، ولمع في عينيه بريق قاتم كالموت، فانسحب الرجل من الاسطبل، وطفق الجمل يدور حول نفسه، ثمّ يرتطم بالجدار مرّات ومرّات، إلى أن تهاوى ساقطاً.

١٩٨١/٥/٧

بائعة الحليب(*)

كان الحرّاس والحاشية يحيطون بها، وهي ماثلة أمام الوالي.

قالت:

ـ جئت أطلب الرحمة من مولاي!

قال الوالي بنبرات قويّة صارمة:

ـ من أنت يا امرأة؟

قالت المرأة:

ـ أنا بائعة حليب مظلومة، وأريد من مولاي، أطال الله في عمره، أن ينصفني.

قال الوالي بلهجة آمرة:

ـ قولي ما لديك.

قالت وهي تغالب الارتجاف في نبرات صوتها:

أحد جنودك يا مولاي، شرب حليباً منّي ومضى دون أن يدفع ثمنه. وأنا امرأة فقيرة الحال، لا أستطيع أن أعيش بدون ثمن

(*) استفاد الكاتب في هذه القصّة من مادّة حكاية شعبيّة تروى عن احمد باشا الجزّار، والي إياليتْ صيدا والشام، باشا عكّا وأمير الحجّ في زمن الحكم العثماني، وكان قد قام بمهاجمة بدو مصر، فذبح منهم أكثر من سبعين، ولذلك لُقّب بالجزّار، وهو الذي حصّن عكّا وقاوم فيها حصار نابليون بونابرت بمساعدة الأسطول الانكليزي (١٧٩٩).

الحليب الذي أبيعه، وليس لي سواك يا مولاي من ينصفني.

قال الوالي متسائلاً:

ـ إذا رأيت هذا الجندي هل تعرفينه؟

وَمَضَتْ عيناها ببريقٍ خافتٍ وقالت:

ـ طبعاً، إذا رأيتُه فسأعرفه، إنّه.

فقال الوالي مقاطعاً:

ـ اسمعي يا امرأة، اذهبي الآن مع قائد الجند، وسوف يجعلك ترين كلّ جنده، إلى أن تتعرَّفي على هذا الذي شرب حليبك ولم يدفع ثمنه.

وتقدّم قائد الجند من بين رجالات الحاشية، وأدّى التحيّة قائلاً:

ـ أمر مولاي!

وخرجت المرأة معه، وذهبت إلى مواقع الجند، تنظر في الوجوه، إلى أن عثرت على الجندي، فاقتاده القائد، وعاد به إلى الوالي.

قال الوالي ويمناه على مقبض سيفه:

ـ أيّتها المرأة، هل أنت متأكّدة من أنّ هذا الجنديّ هو الذي شرب الحليب ولم يدفع الثمن؟

قالت المرأة بثقة:

ـ نعم يا مولاي، إنّني متأكّدة كلّ التأكّد.

سحب الوالي سيفه من غمده، وقال بصوت كالبركان:

ـ إنْ لم يكن هذا الجندي شارب الحليب، فسأقتلك من بعده!

ذعرت المرأة وقالت:

ـ لقد جئت إلى مولاي كي يردّ إليّ ثمن الحليب، فأنا لا أريد غير هذا.

فومضت عينا الوالي بنار مفزعة:

ـ اخرسي.

وأهوى بالسيف على الجندي، فشطره إلى نصفين. وعندما رأى الوالي وحاشيته الحليب يسيل من أمعاء الجندي، ارتفعت الأصوات مهنئة، وتعالى التصفيق، وانفرجت أسارير الوالي، فصار يضحك مقهقهاً، وهو يعيد سيفه إلى غمده، ثمّ قال:

ـ أين هي بائعة الحليب؟

فردّ أكثر من صوت:

ـ ها هي يا مولاي، ها هي.

قال الوالي:

ـ هل ارتاح بالك؟ انصرفي الآن، وإذا شرب أحد حليبك ولم يدفع الثمن، أخبريني في الحال.

وخرجت المرأة، والحزن يغلّف قلبها، وأصوات حاشية الوالي تلاحقها:

ـ يحيا العدل.. يحيا العدل.

١٩٧٨/٥/٣

الأم

قال الرضيع لأمّه:
ـ ثدياك لا يدرّان حليباً، وأنا جائع.
قالت الأمّ:
ـ لو كانت لك أسنان، لأكلت مثلما نأكل.
قال الرضيع هازئاً:
ـ لو زرعنا لحصدنا!
قالت الأمّ:
ـ معك حق.

وصمتا بعض الوقت، ثمّ جاءت الأمّ بسكّين، وأخرجت ثديها الأيسر، وقطعت حلمته، ووضعتها في صحن، فعقدت الدهشة لسان الرضيع، وظلّ ساكتاً. وحينما فرغت أمّه من تقطيع لحم ثديها المضمّخ بالدّم، ووضعه في الصحن، قالت:

ـ إنّه لحم طري، سأمضغه أنا، وتبتلعه أنت.

ووضعت قطعة من لحم ثديها في فمها، ولاكتها بأسنانها، ثمّ أخرجتها بيدها ووضعتها في فمه.

ازدرد الرضيع اللّقمة، وهو ما يزال ساكتاً، وعيناه تدمعان، وينتظر اللّقمة التالية.

قالت الأمّ:
ـ سأخبّئ لك ثديي الأيمن ليوم آخر.
فألقى الرضيع نفسه في حضن أمّه، وأجهش بالبكاء.

١٩٧٨/٥/٣

التحقيق

فتح امرؤ القيس صندوق البريد، فوجد فيه وريقة خضراء مستطيلة تشعره بوجود رسالة مضمونة موجّهة إليه. فأغلق باب الصندوق، وتساءل بينه وبين نفسه عمَّن يكون هذا الذي أرسل الرسالة إليه.

وحين أخذ الرسالة وفتحها، فوجئ بأنّ دائرة ضريبة الدخل هي التي أرسلت إليه الرسالة، وأنّها تطالبه بدفع مبلغ لا طاقة له على دفعه، وأنّ بإمكانه الاعتراض على التقدير خلال مدّة أسبوعين.

ووضع امرؤ القيس طرف قمبازه بين أسنانه، وتأكّد من وجود سيفه إلى جنبه، وخرج من مكتب البريد مهرولاً نحو مكتب الضريبة.

قال مأمور التقدير وهو يتمعّن بهيئة الرجل:

ـ هل أنت امرؤ القيس بن حجر؟

قال امرؤ القيس:

ـ نعم، أنا امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمر بن حجر آكل المرار ابن عمرو بن معاوية بن مرتع الكندي.

قال مأمور تقدير الضريبة وهو يزمّ شفتيه:

ـ شكراً لهذه المعلومات.

وفتح ملفّاً، وصار يقلّب صفحاته ويقول:

ـ من الثابت أنّك تقول الشعر!

ـ نعم، هذا صحيح.

ـ ومن يقول الشعر ويشتهر مثلك، فإنّ كلّ كلمة يقولها تصبح قيمتها عالية.

ـ الحمد الله.

ـ إذن أنت تعترف بأنّك تقبض ثمن شعرك؟

ـ أبداً، أنا لم أقل ذلك، ولكنّي أقول الحمد الله لأنّ قيمة شعري عالية.

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ يعني أنّ قيمته المعنويّة عالية، وها أنت ترى ملابسي الرثّة وسيفي الصدئ.

ـ هذا لا يعني أنّك فقير الحال، فهناك كثيرون لا يحبّون أن يغيّروا ملابسهم. أمّا سيفك هذا، فلا بدّ لك أن تخبرني من أين أتيت بالمال لشرائه؟

وحكّ امرؤ القيس لحيته الطويلة الرفيعة وقال:

ـ لقد أهداه لي أبي.

ـ ومن أين اشتراه أبوك؟

ـ لا أدري.. ربّما من اليمن.

واتّسعت حدقتا عينيْ المأمور وقال بدهشة:

ـ وهل كان أبوك يتعامل مع جهة أجنبيّة أو سفارة عربيّة؟

ولم يقل امرؤ القيس شيئاً، فاستدرك المأمور قائلاً:

ـ وأين يقيم أبوك الآن؟

ـ في عالم ليست فيه ضريبة دخل!

ـ لا أعرف إن كان هناك عالم لا توجد فيه ضريبة دخل.

ـ لقد مات أبي. قتلوه. ولو لم يقدّم سيفه لي لما استطاع بنو أسد أن يفعلوا فعلتهم البشعة هذه.

وبدا التأثّر واضحاً على وجه مأمور الضريبة وقال:

ـ إذن أنت تحمل معك ذكرى غالية من رجل عزيز.

فهزّ امرؤ القيس رأسه مؤيّداً ذلك وتمتم:

ـ نعم، هو كذلك.

فقال المأمور بنبرات خفيضة:

ـ دائرتنا ستعفيك من الضريبة المتعلّقة بالسيف، ولكن سنحاسبك على إبداعك الشعري.

تململ امرؤ القيس في مقعده وقال:

ـ ولكنّي علمت أنّ هناك اقتراحاً يقضي بإعفاء الإبداع الأدبي من الضرائب.

ضحك مأمور الضريبة وقال:

ـ كان هذا اقتراحاً لم يجد التأييد، ولذلك يترتّب عليك أن تدفع ما ورد في كتابنا المرسل إليك.

ـ ولكنّي أعترض.

ـ أيّ اعتراض تقدّمه لن يفيدك، وإذا أردت أن نبحث في الملفّ جيّداً، وندقّق في دخلك، فنحن مستعدّون، ولكنّك ستكون الخاسر.

بحلق امرؤ القيس وقال:

وهل غضضتم الطرف عن جوانب من دخلي؟

طبعاً. فنحن لم نسألك عن ثمن الخمور التي تشربها، ولم نسألك عن الفلك التي عقرتها للعذارى، وغير هذا كثير.

ولكني لا أستطيع دفع المبلغ.

هذا شأنك.

هل تأخذون قصيدة بدل ذلك، وأمنحكم حقّ التصرف بها مثلما تريدون؟

لا يا محترم! نحن نتعامل بالنقود.

ولكن شعري عملة صعبة.

- صحيح ولكنّها لا تدخل في الخزينة.

- وماذا ستفعلون إذا لم أدفع؟

- سنعمّم اسمك على الحدود.

- وفي المطار أيضاً؟

- وفي ميناء العقبة.

- ولكنّي مضطرٌّ للسفر لآخذ بالثأر ممّن قتلوا أبي.

- منذ ألف وخمسمائة سنة وأنت تمشي، وما تزال في عمّان. وكي نصل إلى القسطنطينيّة ستحتاج لألف وخمسمائة سنة أخرى، وحين نصل.

فقاطعه امرؤ القيس قائلاً:

- سيكون سيفي قد تآكل واندثر، هذا صحيح، ولكنّه أبي.

- هناك مائة وخمسون مليوناً من أقربائك، لكلّ واحد منهم ثأر عند

العدوّ، ومع ذلك لا يفكّرون بجاهليّة مثلك، ولا يحملون على أكتافهم سوى بنادق للصيد.

وألقى امرؤ القيس رأسه على راحة يده، وراح ينتحب ويقول:

ـ إنّك تحبطني!

ـ من الأفضل أن تتعايش مع الإحباط، ومن الأفضل أيضاً أن تكفكف دموعك وتذهب لتفكّر بدون تشنّج، كي توفّر المبلغ المطلوب منك لهذه الدائرة.

وخرج امرؤ القيس متهدّلاً حزيناً، يجرُّ خطواته بثقل، وكأنّه يحمل على كاهله أعباء الدهور.

اليوم خمر وغدا

فرك امرؤ القيس عينيه بأصابعه، وقال لروّاد المقهى العربي:

ـ أيّها السادة!

ولاحظ أنّ صوته لم يكن مسموعاً، فتنحنح، وهتف قائلاً:

ـ أيّها السادة!

فالتفت روّاد المقهى نحو مصدر الصوت، وتوقّفت القرقعة في طاولات الزهر، وقرقرة النراجيل، وصمت رواة الحاكيات البطوليّة، وتقدّم من بين الجالسين رجل ذو صلعة ملساء، وأنف طويل كزنبوعة المحقان، وكرش مندلق وقال:

ـ من أنت؟ وما هذه الهيئة الزريّة؟

لم يصدم امرؤ القيس من استخفاف الرجل، ولم يثره تساؤله الهازئ، فتثاءب وقال:

ـ أنا امرؤ القيس، وهذه الملابس التي أرتديها، هي نفسها التي كانت على جسمي عندما علمت بنبأ مصرع أبي.

أصيب الرجل الأصلع السمين بالذهول، وأصيب بالذهول أيضاً كلّ من كان في المقهى، لكنّ ذلك لم يؤثّر على هدوء امرئ القيس، إذ أضاف قائلاً:

ـ أمّا هذه اللّحية الكثّة فقد استطالت وتلوّى شعرها، وعلاها الغبار، بعد أن ظلّت ملاصقة لوجهي طوال عصور متوالية.

ظلّ الذهول مرسوماً على الوجوه، وأكمل امرؤ القيس وقد أشهر سيفه:

ـ عندما علمت بمقتل أبي، قلت: «اليوم خمر وغداً أمر»، وواصلت الشرب، الكأس تلو الكأس، حتّى انكفأت على وجهي، ونمت نومة طويلة، كنت أصحو فيها لأرى الغد الذي أنتظره، كي أثأر لأبي من قاتلية، فأنظر إلى القوارير، فأجدها ملأى، فأعبّ منها من جديد، وأنظر إلى سيفي، فأجده صدئاً مثلوماً، فأعيده إلى غمده، ثمّ أعود وانكفئ على الطاولة.

قال الرجل الأصلع وقد بدا عليه الذعر:

ـ أيّها الرجل، من أرسلك الينا كي تفسد صفاء هذا المقهى؟

ولّلم الرجل أطراف شجاعته وقال:

ـ إنّك معتوه. لا شكّ أنّك معتوه.

لم يكترث امرؤ القيس كثيراً لكلامه، وأضاف بهدوء:

ـ أيّها السادة، قد تستغربون إذا قلت لكم إنّني كنت أرى حزناً عميقاً في وجوه روّاد المقهى، في كلّ مرّة أصحو فيها. أمّا هذه المرّة، فإنّني أرى الحزن أشدّ عمقاً ممّا رأيت في حياتي. ولذلك، فإنّني سأضع حدّاً لحياتي أمامكم. فهذا الغد الملعون لا يأتي، وأنا سئمت النوم والاسترخاء الدهريّ.

وقبض امرؤ القيس بكلتا يديه على مقبض سيفه، جاعلاً نصله نحو صدره، وضغط بكلّ قوّته، في محاولة لوضع حدّ لحياته، لكنّ السيف الصدئ المثلوم، فرقع في الهواء، وتطايرت قطع منه أمام روّاد

الهم، فاغتاظ امرؤ القيس، وألقى بما تبقّى من سيفه بعيداً، وألحق به الهمد، وأمسك بكأس أمامه وقال:

- أيّها السادة، العبوا النرد، وقرقروا بالنراجيل، فاليوم خمر وغداً أيضاً خمرا

ورفع الكأس عالياً، وهو يضع على وجهه ابتسامة استهلاكيّة:

- بصحّتكم أيّها السادة. بصحّتكم!

وشرب الكأس دفعة واحدة، ثمّ راح في إغفاءة طويلة.

كانون أول ١٩٨٠

زوجة قاسم

أرخى قاسم أمين ظهره على كنبة وثيرة في منزله وفرقع أصابع يديه ورجليه، في حين دخلت زوجته «تتقصوع» حاملة بيديها طشتاً فيه ماء، ووضعته عند رجليه وقالت:

ـ هل أفرك لك رجليك يا عمري؟

قال قاسم أمين وهو يرفع يده:

ـ معاذ الله يا بنت الأكرمين!

قالت زوجته، وهي تجلس القرفصاء إلى جوار الطشت، الذي أراح فيه قاسم رجليه:

ـ وماذا سيحدث يا بعلي لو أنا غسلت لك رجليك مثلما كنت أفعل من قبل؟

فتح قاسم أمين عينيه مبحلقاً، ورفع حاجبيه مستنكراً وقال:

ـ ماذا سيحدث؟

وصمت لحظة ثمّ أضاف:

ـ لو رآني أحد الناس وأنا على هذه الهيئة، لما صدّق حرفاً واحداً من مقالاتي وكتبي!

وشعر قاسم أمين بمتعة فائقة، ونشوة بدت على وجهه، وزوجته تدلك قدميه.

قالت زوجة قاسم:

ـ ليس في المنزل أحد سوانا، فالأولاد في المدرسة، ولن يعرف أحد أنّي اغسل قدميك!

قال قاسم، والتلذّذ بادٍ في نبرات صوته:

ـ «المرأة الجديدة»!

وضحك بصوت كالجلجلة، أو كالزلزلة، ثمّ أردف:

ـ كتابان هززت بهما مصر، وهززت الشرق كلّه. فتحت بهما عيون النساء على واقعهنّ، وعلى حقوقهنّ!

ولمح قاسم أمين كتفي زوجته المحنيّة فوق قدميه، يهتزّان بذبذبة شبيهة بحركة الشوكة الرنّانة، فقال:

ـ ماذا حدث لك يا زينة النساء؟

رفعت زوجة قاسم وجهها، ونظرت إليه بوجه ضاحك، وعينين دامعتين، وقالت:

ـ لا شيء. لم يحدث شيء!

ـ ولماذا تضحكين؟

ـ لا تؤاخذني يا أكرم بعل، فأنا أضحك عليك!

انتفض قاسم، وكاد طشت الماء ينقلب تحت رجليه:

ـ ماذا تقولين؟

ارتبكت زوجة قاسم وقالت:

ـ أقصد. أقصد أنّي أضحك من كلامك!

ـ وما المضحك في كلامي؟

نهضت زوجة قاسم، ومسحت يديها بطرف ثوبها وقالت:

ـ المضحك يا بعلي، أنَّك هززت الشرق كلّه بمقالاتك وكتابيك، لكنّك ما نزال تحنّ لانحنائي على قدميك لأغسلهما!

عاد قاسم، وأرخى ظهره على الكنبة وقال:

ـ من الآن فصاعدا يا أمّ أولادي، لا أريد أن أرى هذا الطشت في المنزل، وسوف أضع رجليّ تحت الحنفيّة، كي لا تتّهميني مثل هذه التهمة!

ورفعت زوجة قاسم الطشت، محاذرة أن لا يندلق منه الماء، فأضاف قاسم:

ـ أحضري دشداشتي يا بنت الأكرمين، وكوب ماء، ولا تتأخّري في تجهيز الغداء!

فخرجت زوجة قاسم بالطشت، وهي تقول:

ـ حاضر. حاضر.

ذو القرنين

دخل إلى المنزل مندفعاً، وبحث عن زوجته في الغرف، ثمّ وجدها في المطبخ.

قال لها:

ـ أشعر اليوم أنّني خلقت من جديد.

رمقته بطرفي عينيها، ثمَّ عادت إلى النظر في الطنجرة التي يتصاعد البخار منها، فأضاف قائلاً بحماس:

ـ أشعر أنّني تغيّرت كثيراً، وأشعر أنّ التغيير ما يزال مستمرّاً في عقلي وجسمي معاً.

قالت زوجته دون أن تنظر إليه:

ـ يبدو أنَّ الكوابيس قد أثّرت عليك.

واستوقفته كلمة «الكوابيس»، وأحسّ أنّ زوجته قد أصابت في قولها. فمنذ عهد غير قريب وهو يرى نفسه أثناء النوم، يقود جيشاً كبيراً ينطلق من مقدونيا، ويمخر عباب البحر الأبيض، باتجاه الشرق. وحين يصوّب أحد الجنود في حامية على الشواطئ المصرية سهماً نحوه، يستيقظ مذعوراً، ويوقظ زوجته لتحضر له كوب ماء. وفي كلّ ليلة يتكرّر المشهد نفسه.

ووقف أمام مرآة المغسلة، ونظر إلى وجهه، فوجده قد استطال، حتّى صار شبيهاً برأس القطار، ودنا من المرآة أكثر، فلاحظ وجود

بروز في أعلى الركن الأيمن من جبينه، والتفت إلى أعلى الركن الأيسر، فوجد فيه بروزاً مشابهاً.

هتف دون أن يتمالك نفسه:

ـ لقد بدأت ملامح العظمة تظهر على وجهي.

وخرجت زوجته من المطبخ، واقتربت من وجهه متسائلة:

ـ ماذا قلت؟

قال باندفاع تطاير معه من فمه:

ـ انظري..

وأشار إلى البروز في جبينه وأضاف:

ـ انظري. سيصير الحلم حقيقة.

فغرت زوجته فمها وقالت:

ـ سيظهر لك قرنان!

ـ أجل يا امرأة. وسأصبح ذا القرنين مثل اسكندر المقدوني.

ـ ولكن اسكندر لم يكن ذا قرنين حقيقيّين!

ضحك مقهقهاً وقال:

ـ القرون الأصليّة أفضل من القرون الاصطناعيّة!

وظلّ رنين ضحكته يدوي في آذانهما، حتّى قالت زوجته:

ـ أنا خائفة عليك!

ابتسم وقال:

ـ تخافين من البدايات الأولى للمجد، فكيف سيكون حالك عندما أخطر فوق المجد، وأتنسّم رائحة الشموخ وعبق النصر؟

قالت بأسى:

ـ لقد أضاعك سهم ذلك الجندي الذي تراه في منامك.

قال مستفسراً:

ـ كيف؟ كيف أضاعني؟

قالت:

ـ ألا تستيقظ كلّ ليلّة مذعوراً من ذلك السهم الذي يمنع اندفاع جيوشك نحو البرّ؟ أليس ذلك السهم هو الذي يحول بينك وبين الوصول إلى مصر وسوريا وبلاد فارس والهند؟

تنهَّد وقال:

ـ ذلك الجندي هو سبب خيبتي اللّيليّة حقّاً.

وربتت زوجته على كتفه وقالت له:

ـ ادخل إلى سريرك، واخلع حذاءك، فأنت متعب، وبحاجة إلى شيء من الراحة.

ولم يقل شيئاً، فدخل إلى غرفة النوم، وجلس على حافّة السرير، وخلع فردة من حذائه، ثمّ أعاد رجله إليها من جديد، وخرج إلى زوجته راكضاً:

ـ اسمعي.

ـ ماذا؟

ـ هل كانت للاسكندر المقدوني حوافر؟

القندلفت

جلده مشدود فوق عظام وجهه البارزة، وشاربه يتدلّى فوق شفته العليا، وعيناه مصرورتان تحت الرموش السوداء المكسّرة، ودائماً، هناك زبد أبيض في زاويتي فمه.

عمل في خدمة الدير والكنيسة سنوات عديدة، لا يعرف عددها على وجه الحصر، وطوال مدّة عمله، ظلّ صامتاً، فتعلّم الخشوع والطاعة، يرنّم مع الكاهن، ويهيّىء لوازم الهيكل، ويحافظ على ترتيب مقاعد الكنيسة ونظافتها، ويشتري للكاهن كلّ حاجيات الدير.

عندما تغيَّر كاهن الطائفة، واكتشف الكاهن الجديد أنّ القندلفت أمّي، ينظر في كتب الصلوات ويتلو من محفوظاته، قرّر استبداله، وأبلغه بالاستغناء عن خدماته!

كان وَقْعُ الاستغناءِ مؤثّراً، وإن كان يُداخله إحساس بالرغبة في الرَّاحة، لكنّ مسؤولية الأولاد والزوجة، زادت من تأثّره وضيقه.

وخرج من ساحة الدير بخطوات بطيئة متثاقلة، وأصابع يده تعبث بشاربه بحيرة وشيء من القلق.

وما إن وقع على جسده قدر من ضوء الشمس، وملأ رئتيه بهواء الشارع، حتى هتف قائلاً:

ـ ماذا يستفيد الإنسان لو ربح العالم كلّه وخسر نفسه؟

وتقهقر إلى الوراء قليلاً، وألصق ظهره بجدار الدير هامساً لنفسه: «للحيطان آذان!»، ثمّ قرّر العودة إلى صمته، حتّى ولو لم يعد يزاول مهنته القديمة، ثمّ أكمل سيره في الطريق نحو البيت، معتقداً أنّ الصمت يشفع له من أيّة زلّة لسان.

وقضى نهاره في ضيق، ازداد عندما قالت له زوجته:

ـ لا تهتمّ. الشغل كثير.

وكان يعرف أنّ الشغل بالنسبة لرجل مثله ليس كثيراً، وكان يعرف أيضاً أنّه لا يتقن أيّ عمل آخر سوى خدمة الدير والكنيسة، ولذلك، فإنّ التعبير عن الاستياء كان يطفح من صدره، فيكبته، ويتذكّر أنّ عليه أن يصمت.

وفي تلك اللّيلة، نام ساعات قليلة، رأى خلالها جدران الغرفة مزروعة بالآذان التي تمشي نحوه، تريد أن تطبق على أنفاسه، فهبّ مذعوراً، ولم يجرؤ على مواصلة النوم. فنهض وارتدى ملابسه، وخرج متوجّهاً إلى الدير من جديد، متلفّتاً نحو الجدران، إلى أن وجد الكاهن راكعاً في مقعد خلفيّ من الكنيسة، فركع بجانبه، وقال له هامساً:

ـ أبانا، لكلّ الحيطان آذان وأقدام، تريد أن تخنقني، وليس لي من ملجأ سوى الدير.

ظلّ الكاهن يتمتم بصلوات مبهمة، ثمّ فكّر قليلاً وقال:

ـ عد يا بنيّ إلى الدير، ولكن لا تقترب من الكتب، ولا تحاول أن ترنّم معي.

١٩٧٧/٨/٢١

حلم حارس ليليّ

كان الجوّ بارداً، والمطر ينهمر بغزارة، فلاذ أبو علي تحت شرفة إحدى البنايات، ووضع عصاه تحت إبطه، ودسّ يديه في جيبيْ معطفه القديم الداكن، وراح ينظر إلى خطوط المطر المستقيمة التي تتكسّر عند اصطدامها بضوء المصباح الذي يضيء الشارع.

وطال وقوفه، فتعبت رجلاه، وجلس على الرصيف، وألصق ظهره بجدار البناية. وبعد وقت غير طويل أغفى. فمال رأسه نحو صدره وعلا شخيره وغطيطه.

كان أبو علي مسؤولاً عن حراسة الشارع منذ سنوات، وعبر كلّ هذه المدّة، لم تحدث أثناء مناوبته حادثة سرقة واحدة، بل إنّ حوادث الشجار، التي يعتبرها زملاؤه اعتياديّة للغاية، لم تحدث أثناء مناوبته إطلاقاً، وكان هذا الهدوء الذي لازمه طوال فترة عمله في الشارع، موضوع فخر ومباهاة له أمام الزملاء وأمام المسؤولين، وقاده فخره ومباهاته إلى الحذر الدائم واليقظة المستمرّة، كي تظلّ سمعته مثل المسك، لا تشوبها رائحة غير مستحبّة، ولا يمسّها حاسد بكلمة غير مرضية.

رأى أبو علي في تلك اللّيلة، شاباً متلثّماً يمرّ من أمامه، دون أن يطرح عليه تحيّة المساء، فارتاب في أمره، وما إن ابتعد عنه عدّة أمتار، حتّى أخرج أبو علي صفّارته من جيبه، وصفّر بها ثلاث

صفرات حادّة، ليقول للشاب إنّه موجود، وإنّه يقظ، وإذا كانت نفسه تسوّل له اقتراف جريمة ما، فإنّه واقف له بالمرصاد! لكنّ الشابّ لم يلتفت للصفير، وتابع سيره بلا اكتراث، ثمّ اختفى عند أوّل منعطف. فقال أبو علي لنفسه: «ما دام هذا الملثّم قد ابتعد عن منطقتي، فإنّ مسؤوليّة مراقبته صارت من اختصاص غيري». وما هي إلّا لحظات، حتّى عاد الشابّ الملثّم إلى الشارع، واثق الخطوة يمشي بعفويّة كأنّه يسير في وسط المدينة في عزّ الازدحام.

حين اقترب منه استوقفه أبو علي قائلاً:

ـ هويّتك؟

قال الشابّ من خلف لثامه:

ـ لا أحمل هويّة!

قال أبو علي:

ـ فكّ لثامك، ودعني أرى وجهك.

قال الشاب من خلف اللثام أيضاً:

ـ وما شأنك بي أو بلثامي؟ اتركني في حالي!

لوّح أبو علي بالعصا، وقال:

ـ أنا مسؤول عن أمن هذا الشارع.

ـ ولكنّي لم أفعل شيئاً ضدّ أمن الشارع.

رفع أبو علي العصا، وقال:

ـ بكل وقاحة تدّعي أنّك لم تفعل شيئاً، وأنت، على رقبتي، تفكّر بسرقة أحد المنازل هنا.

رفع الشاب يده، وأمسك بالعصا، وأضاف أبو علي:

ـ قلت لك فكّ اللثام.

قال الشاب:

ـ وأنا أقول لك فكّ بلاك عنّي!

وحين استغرق أبو علي في نومه على رصيف الشارع، كاد ينقلب على وجهه، فاستيقظ كالمذعور، ونهض وبحث عن عصاه فلم يجدها. وبحث أكثر، فلم يجد لها أثراً. وقال بصوت مسموع:

ـ لا لم يأخذها الشاب الملثّم، فقد كان هذا حلماً.

وأضاف:

ـ هذه أوّل حادثة سرقة تقع في هذا الشارع منذ عدّة سنوات!

لا وقت للموت

فليكن ذكرها مؤبّداً.

ماتت أمّي بسبب انفجار في أحد شرايين دماغها. ماتت في فراشها أثناء اللّيل. ربّما كانت بحاجة إليّ. وربّما كان إنقاذها ممكناً، ولكنّها، ماتت. ماتت بعد أن قضت ليلة نضاليّة سأظلّ أفخر بها، أمضت نصفها الأوّل في مقاومة قذارة أقربائي، وأمضت نصفها الثاني في مقاومة الضغط العالي. وعندما تمزّق الشريان، هدأت أنفاسها تماماً. فليكن ذكرها مؤبّدا.

في تلك اللّيلة قال لي أقربائي كلّهم:

ـ إذا تزوّجت من سيّئة الذكر فتنة اسكندر، المذيعة التلفزيونيّة، فسوف تعيش كالكلب الأجرب، منبوذاً، لا يتعرّف عليك أحد منّا.

صحت في وجوههم جميعاً، بفم مفتوح على مدى اتّساعه:

ـ أنا الذي يريد أن يتزوّج، فما شأنكم أنتم؟ وأعدكم أنّني لن أتدخّل إذا أراد واحد منكم أن يتزوّج من مذيعة تلفزيونيّة، أو مذيعة ميكروفون في صالة ملهى ليلي.

وهنا تطوّع أحدهم بوقاحة:

ـ صحيح أنّك ولد لا يعرف أين طريق الخجل.

وتبرّع آخر فقال:

ـ وجهك ممسوح كالقرش القديم، ولا تستحي.

وأقحم ثالث نفسه قائلاً:
ـ جيل وسخ، لعنة الله عليه.
لكنّ الرابع لخّص كلّ شيء بقوله:
ـ ابن أرملة، هذه هي تربية الأرامل، لو أنّ أباك حيّ لأحسن تربيتك، ولوى عنقك تحت رجله.

وتمنّيت أثناء تبجّحه وقيئه، لو بمقدوري أن أجمع كلّ لعاب فمي وأقذفه في وجهه، إلاّ أنّ أمّي هبّت في عيونهم وآذانهم كالقنبلة الموقوتة، ورفضت الإصغاء لشتائمهم، وطالبتهم بمراعاة البيت أو الخروج الفوري.

وهنا فتح أحد أعمامي فمه ليقول برصانة كريهة:
ـ نحن نريد مصلحة الولد، وهو جاهل لا يعرف خيره من شرّه، وخطيئته برقابنا إذا تركناه يفعل ما يشاء.

قلت لعمّي الذي أعرف عنه ولعه الطاغي بالنساء:
ـ نحن في وقت لا يتحمّل فيه الأخ خطايا أخيه.
وواصل كلامه وكأنّي لم أقل شيئاً:
ـ ولذلك يجب أن نختصر الشرّ ونبتعد عن الفضائح.
رفعت صوتي معترضاً:
ـ زواجي من فتنة ليس فضيحة.
قال قريبي الذي وصفني بأنّي لا أعرف أين طريق الخجل:
ـ أنت تعرف أكثر من غيرك أن عملها لا يشرّفنا كثيراً.
وأضاف قريبي الآخر الذي وصف وجهي بأنّه ممسوح كالقرش القديم:

ـ كلّ زملائها رجال، وكلّ احتكاكها بالمصوّرين والمخرجين والموظّفين.

وغمز ببلادة وتشفٍّ:

ـ ودوامها يبدأ بعد غياب الشمس.

قلت:

ـ لا تنس أنَّ كثيراً من الرذائل ترتكب قبل غياب الشمس.

وعاد عمّي ففتح فمه من جديد، قائلاً لي:

ـ هذا الصنف من البنات لا يناسبنا، ووجهها معروف أكثر من وجوه الشياطين، وإذا تزوّجتها فإنّك لن تستطيع الخروج معها في مشوار، أو الظهور في أيّ مكان عام.

أزاح أحد أقربائي شفتيه عن بعضهما، ليسهم لأوّل مرّة في الحديث:

ـ هذا كلام، والله، مقنع.

وأطبق فمه كما كان، وسكت.

قال قريبي الذي وصف جيلي بأنّه وسخ:

ـ تأكّد أنّك سوف تندم بعد فوات الأوان، فهذا زواج كاثوليكي لا فكاك منه.

تدخّلت أمّي بغضب قاصم:

ـ كلّ كلامكم بلا ثمرة، باختصار أنتم مدعوون لحضور حفلة إكليله يوم الأحد القادم الساعة العاشرة، ولا لزوم لكثرة ألـ

قال عمّي مقاطعاً:

ـ هكذا إذن؟

وأضاف وهو يهمّ بالخروج ويتبعه الآخرون:

ـ لن يحضر أحد منّا، أبداً.

وما إن خرجوا، حتّى استلقت أمّي على ظهرها متعبة، وقالت من خلال لهاثها:

ـ كل يوم نكد وتفوير دم، ملعون أبوها من عيشة، أحسّ أن ضغطي ارتفع إلى عشرين.

قلت لها:

ـ خذي حبّة من حبوب الضغط.

أجابت بضيق، وهي تبعد ياقة فستانها عن شرايين عنقها لتتنفّس بارتياح:

ـ أخذت قبل قليل، ولكنّ الحبوب لم تعد تنفع.

ورغم أنّ إزعاج الضغط لها كان أكثر من المعتاد، فإنّي لم أتردّد في تركها، والذهاب للنوم معتقداً أنّها ستهدأ بعد قليل. فليكن ذكرها مؤبّداً.

وكان الصباح كدراً أغبر. صحوت متأخّراً. لم توقظني أمّي ككلّ يوم. كانت تقول لي:

ـ اصح. الساعة سبعة ونصف.

ولأنّي أعلم أنّها كانت تضيف ربع ساعة من عندها دائماً لتساعدني على الاستيقاظ السريع، أتلكّأ كثيراً، وأتثاءب بكسل نادر.

الصمت العميق يتمدّد في زوايا البيت بكثافة غير مألوفة. أمّي ما تزال في فراشها. رهبة الموت المتراكم بوهجه الأسود تمطّت بتثاقل

ولزوجة تحت جلدي، وتراكضت في دمي مع كريّاتـه. اقتربت منهـا. حاولت إيقاظها. لأوّل مرّة أحـاول في ذلك الصبـاح. لكنّها لم تجبني. مددت يدي إلى رأسها فوجدته جامداً متيبّسـاً كرأس تمثـال. ركضت حافياً، مرتدياً البيجاما، وأحضرت طبيبها. بقي إلى جـانبها أكـثر من ساعتين، قضاهما بإعطائها الإبر المنعشة وجسّ نبضها وتسكيت النساء اللواتي التقطن الخبر فحضرن.

أعاد الطبيب أدواته إلى حقيبته، ونهض قائلاً:

ـ البقيّة بحياتك، حاولت ولكن بدون نتيجة.

هبط قلبي وقلت بهلع:

ـ وهل توقّف نبضها نهائياً؟

قال وهو يومئ برأسه:

ـ أعتقد ذلك.

هذا النوع من الإجابات لا يريحني. أضاف قبل خروجه:

ـ كـان نبضهـا ضعيفـاً، ثمّ تـوقف، أرجّـح أنّـه انفجـار في أحـد شرايين الدماغ. البقيّة بحياتك.

وصل الخوري سمعان بذقنه العريضة المموّجة، ولبس البطرشيل(*) وأخذ بالتبخير مرتّماً:

ـ تبارك الهنا كلّ حين، الآن وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين.

فردّ مرتّل بجانبه:

ـ آمين.

(*) البطرشيل: قطعة من القماش يضعها الكاهن حول عنقه أثناء تأدية رتبة القدّاس.

واصل الخوري ترنيمه، وذقنه تتذبذب بحركة كريهة:

ـ أيّها المخلّص، أرح نفس أمتك هيلانه مع أرواح الصدِّيقين الراقدين، واحفظها للحياة السعيدة التي أعددتها، يا محبّ البشر.

كنت أقف عند قدميْ أمّي فرأيت عينيها في نصف إغماضة، وفيهما بريق هامد غير متألّق. «كان نبضها ضعيفاً، ثمّ توقّف». لا عيناها ليستا مطبقتين كعيون الموتى، لم يتوقّف نبضها بعد. لا أستطيع أن أصدِّق أنّ أمّي التي كانت بالأمس تردّ على أقربائي بصلابة، قد توقّف نبضها. ولا أستطيع أن أصدّق أنّ أمّي التي تستقبلني عندما أعود إلى البيت في المساء، وتسألني إن كنت أريد أن أتعشّى أم لا، قد توقّف نبضها. كنت أسألها:

ـ ماذا لدينا للعشاء؟

وكانت تجيب في أغلب المرّات:

ـ بيض وجبنة وزيتون.

ثمّ تضيف:

ـ وشاي.

وفي بعض المرّات تقول:

ـ من طبيخ الظهر.

أوقف الخوري سمعان الصلاة فجأة، وتعاون مع إحدى النسوة، وأنهضاني عن رجليْ أمّي اللّتين كنت أبكي فوقهما، ثمّ استمرّ الخوري مرنّماً بصوت مرتفع:

ـ فليكن ذكرها مؤبّداً.

فردّ عليه المرتّل بنفس النغمات والكلمات:

ـ فليكن ذكرها مؤبّداً.

ثمّ أعاد الخوري العبارة مرّتين أخريين، والمرتّل يردّ عليه، وكأنّه يقوم بمحاولة لتقليده.

فتنة. وأخيراً جئت؟ ها؟ وبودرة حمراء على صدرك. كان عليك أن تنزعيها قبل حضورك. أنا أعلم أنّ وجودها ليس أمراً مهمّاً، إلّا أنّها تعطي فرصة للكلاب كي تنبح علينا، أليس كذلك؟ تقولين: لا؟ رائعة أنت كالسماء. أحسّ أحياناً أنّني مرشّح لأكون مغفّلاً كبيراً من شدّة إعجابي بك. لا تسيئي فهم قصدي. أتذكرين عندما كنّا نسير مساء في سيّارتك الصغيرة الدافئة، في إحدى محاولاتنا لاكتشاف كلّ الطرق الرئيسيّة والفرعيّة، ووجدنا نفسينا أمام مقبرة كبيرة تنتصب شواهدها بشموخ مرعب، أتذكرين كيف استولى على نفسي انقباض حاد، وطلبت منك أن تبتعدي عن المكان بسرعة، ولكنّك تريّثت قليلاً، واقترحت عليّ أنّ نهبط من السيّارة، ونتعانق بين القبور، كي تؤكّدي لي أنّ ليس هناك ما يثير الانقباض أو الكآبة، لأنّ الموت حقيقة كالميلاد ويجب أن نتقبّله ببساطة؟

أتعرفين يا فتنة؟ الفرق بيني وبينك أنّك تفعلين ما تقولين، بينما لا أجرؤ أنا على فعل ما أقول. أحبّك. أحبّك أكثر من. أكثر من ماذا؟ أكثر من كلّ شيء خارق جميل.

وكان التابوت يرفع على الأكتاف، للتوجّه إلى الكنيسة، والمرتّل المرافق للخوري سمعان ينشد بتقوى وخشوع مفتعلين، وبنغم طويل ممطوط:

ـ قدّوس الله. قدّوس القوي. قدّوس الذي لا يموت ارحمنا.

وعندما وضعت كتفي على طرف التابوت للمشاركة في حمله، شعرت أنّ كلّ شيء ضدّي، الحياة نفسها تضطهدني، الشارع يتمايل برشاقة سخيفة، والناس الذين ينظرون إلينا بحبّ استطلاع وحياديّة، يتمايلون أيضاً، حتّى تلك المرأة العجوز التي رسمت إشارة الصليب على وجهها أثناء مرور الجنازة، كانت تتمايل هي الأخرى.

حذار من أن يغمى عليك! أنت الآن في الشارع العام. لا تجعل المتفرّجين يشفقون عليك واذكر أنّ فتنة اسكندر تسير من ورائك بوردتها الحمراء المتحدّية.

ـ قدّوس الله. قدّوس القوي. قدّوس الذي لا يموت ارحمنا.

أليس موت أمّي اضطهاداً لي؟ أليس تأجيل الإكليل اضطهاداً لي؟ أليس أيضاً تشفّي أقربائي بهذا التأجيل اضطهاداً لي؟ لا لا فأمّك لم تمت، هذه ليست نكتة، أمّك لم تمت، رغم أنّك تحمل تابوتها الآن. فهي عائدة إليك حتماً. أؤكّد لك ذلك. من الجائز أن يكون الطبيب مخطئاً.. هذا جائز جدّاً، ولا تدهش إذا عدت إلى البيت ووجدتها تنتظرك للغداء، وقد أعدّت لك فاصوليا ناشفة من التي «يشتهيها قلبك». ومن ناحية أخرى، هل تستطيع أن تتخيّل نفسك بدونها في البيت؟

لا لا أستطيع أن أتخيّل ذلك.

ـ قدّوس الله. قدّوس القوي. قدّوس الذي لا يموت ارحمنا.

واستقرّ التابوت أمام الهيكل، ثمّ دنا القندلفت(*) فرفع الغطاء، ووضع صورة مريم العذراء فوق يديْ أمّي المضمومتيْن على صدرها. كانت نقيّة البشرة، شاحبة، وبدت فتحتا أنفها متّسعتين كثيراً، لأنّني كنت أقف عند قدميها في الجهة المقابلة للخوري. وعدت أرى عيني أمّي مرّة أخرى في نصف الإغماضة، فشعرت أنّها تسترق منّي نظرات وداعيّة. وكانت ملامح وجهها مغطّاة بظلال باهتة لابتسامة مقتولة بالموت المفاجئ، وعلى شفتيها، وخاصّة في الانحناءة الصغيرة التي فوق شفتها العليا، مسحة زرقاء داكنة.

ـ تبارك الربّ إلهنا كلّ حين، الآن وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين.

ـ آمين.

ـ هللويا. هللويا. هللويا.

أهذه أنت مرّة أخرى؟ انظري إليّ جيّداً. انظري في عمق عينيّ، أترين كم أنا حزين وتعيس؟ كنّا سنأتي إلى هذا المكان ونحن نرتدي ملابس الزفاف البيضاء والكحليّة، والخوري سمعان يردّد بكلّ قوّة:

ـ «بالمجد والكرامة كلّلهما»، وأمّي تطلق زغرودة تبعث الفرح في الأوصال الكئيبة، وتتردّد أصداؤها أمام صور كلّ القدّيسين المعلّقة على أعمدة الكنيسة وجدرانها. ولكن. ولكن التعاسة تحفر الآن كلّ شرايين.

ـ هللويا. هللويا. هللويا.

فتنة، انظري إليّ جيّداً. انظري في عمق عينيّ. لولا هذه الوردة

(*) القندلفت: مرافق الكاهن، ومنظّم شؤون الهيكل.

الحمراء التي تضعينها على صدرك، لوددت أن أموت انتحاراً. سنمضي الآن إلى المقبرة وندفن أمّي في رقدتها الأخيرة، ونكتب على شاهد قبرها: «هنا ترقد بالربّ هيلانة»، ثمّ نتعانق، ونتعرّى، ونركض، ونرسل حارس المقبرة ليحضر لنا قارورة خمر، فنسكر، ونتعانق من جديد، ونلهث حتّى آخر قطرة من النشوة. ماذا تقولين؟ هذا غير لائق. آه. فهمت. أمّي لم تمت. سنعود إلى البيت لنجدها بانتظارنا.

فليكن ذكرها مؤبَّداً.

كانون أول ١٩٧٣

الكلب

كان جالساً على مؤخّرته، وشمس الشتاء الدافئة تنعكس على وبره الأبيض الخشن، فيبدو لامعاً مصقولاً وتثاءب مرّة فرأيت صفّين طويلين من الأسنان الحادّة القاطعة، يقف في كلّ صفّ منهما نابان بارزان مدبّبان، ينتهي كلّ منها بطرف رفيع كنهاية قلم رصاص.

كنت أقف خلف سور قديم، يحيط بحاكورة صغيرة ممتدّة أمام منزلنا، وكانت هذه فرصتي لأتأمّل وأطيل التأمّل، في ملامح وجه أكبر عدوّ لأولاد وبنات حارتنا. وقلت في نفسي:

«عندما أحدّث ميسون وبقيّة الأولاد والبنات عن أسنانه وأنيابه، فإنّهم لن يصدّقوني. وإذا قلت لهم إنّ عينيه لونهما عسلي مائل للسواد فإنّهم لن يصدّقوني، ولكنّي لا أستطيع أن أفعل شيئاً تجاه تكذيبهم لي، سوى أن أحلف لهم بروح جدّي، وبعد ذلك، فهم أحرار».

وبلغت بي البسالة إلى حدّ إطالة الوقوف خلف السور، وإلى حدّ إطالة التأمّل والتمعّن، فقد حرّك كلب أبو شطارة يده اليمنى المنتصبة بموازاة اليد الأخرى، وضربها بالأرض مرّتين أو ثلاث مرّات، ثمّ أعادها إلى امتدادها السابق. وهنا استقرّت ذبابة سوداء جريئة على الفسحة الوبريّة الفاصلة بين عينيه، فهزّ رأسه هزّات سريعة متوالية، تذبذبت لها أذناه، ونهض، ثمّ مدّ لسانه الأحمر الناعم، بحركة معقوفة، ولعق الذبابة وابتلعها.

ويظهر أنّه لاحظ وجودي وراء السور في تلك اللحظة فقط، فالتفت إليّ، وهزّ ذيله، وراح ينظر نحوي بثبات مخيف، تحوّل في مفاصلي إلى رعب قد يؤدّي إلى الانهيار، كان سهلاً جدّاً أن يقفز الكلب فوق السور ويمسك بي، وينهش لحمي عن عظمي، لكنّه لم يفعل ذلك، وبقي ينظر إليّ ويهزّ ذيله، حتّى استطعت الانزلاق نحو الأرض، والاختفاء عنه. ويبدو أنّه لم يفكّر بمطاردتي، وسمعته ينبح لمرّة واحدة:

ـ هاو.

وما إن أوشكت على وصول البيت، حتّى سمعت ضجيجاً وزعيقاً ونباحاً، وتراكض الناس وتجمّعوا في الطريق الترابيّة التي يرابط الكلب في رأسها: كانت ميسون ضحيّة ذلك اليوم الجديد! لقد عضّها في مؤخّرتها عضّة مزّقت الفستان وجعلت لحمها الطري الملطّخ بالدم ينكشف أمام العيون.

مسكينة ميسون.

فهذه المرّة الثانية التي يعضّها بها الكلب في فترة قصيرة لا تزيد عن أسبوعين، وقبل بضعة أيّام، كان من الممكن أن يلحق بها هي بالذات، ويعضّها أيضاً، لولا أنّه اكتفى بولد آخر، وعضّه في «بطّة» رجله، وبقيت ميسون تركض أمامي، وأنا ألهث خلفها، حتّى وقعت على الأرض، ووقعت فوقها، فدخل طرف جديلتها في فمي.

وكنت دائماً أتساءل: لماذا لا يطارد الكلب أباءنا وأمّهاتنا وأجدادنا وجدّاتنا عندما يمرّون من أمامه، في حين أنّه لا يعفينا نحن الصغار من إرهابه لنا؟ صحيح أنّنا لا نحبّه وصحيح أنّنا نرميه بالحجارة كلّما

استطعنا أن نضمن السلامة، ولكنّنا لم نفعل هذا إلّا لأنّه لا يحبّنا هو أيضاً، ويحاول إيذاءنا كلّما توفّرت له الفرصة.

مسكينة ميسون!

لقد نالت من إيذاء الكلب أكثر ممّا نال أيّ واحد منّا، ربّما لأنّها أكثرنا تحرّشاً به وربّما لأنّها أكثر عداء له.

ولأنّها نالت من إيذاء الكلب أكثر ممّا نال أيّ واحد آخر من أولاد وبنات الحارة، فقد ذهب أبوها إلى البيت، وعاد ومعه بارودة خشبها مدهون بالكماليكا وعندما همّ بإطلاق النار على الكلب، استوقفه الناس، ورجوه أن يتمهّل، حتّى لا تنطلق الرصاصة ـ بالخطأ ـ وتصيب واحداً منهم، فقبل الرجاء، وعلّق بارودته على كتفه، ودخل على الفور إلى حوش دار أبو شطارة، وتوجّه على مرأى من الجميع إلى البيت العتيق، المبنيّة نوافذه وبابه على هيئة نصف دائرة من الحجارة المتلاصقة. وعندما دفع الباب، سمعنا صريره الممطوط، وخفقت قلوبنا، وهمس بعضنا في نفسه: هذه نهاية الرجل.

وقال البعض الآخر بصوت مسموع:

يا خسار شبابك يا أبو ميسون!

وشهقت إحدى النسوة ودقّت على صدرها، صارخة:

ـ تقود نفسك للموت برجليك. ارجع!

ومرّت دقائق بطيئة متثاقلة، وظلال الفجيعة تندسّ في مسامات الوجوه وتجاعيدها ثمّ ساد صمت لزج مملّ، يقطعه من لحظة إلى أخرى نباح متقطّع:

ـ هاو. هاو.

وانتبهنا جميعاً إلى صوت أمّ ميسون وهي تقول بتوجّع ونفاد صبر:

ـ إلى متى سنظلّ محكومين لهذا الكلب ومحكومين لأبو شطارة؟

وألقت أمام الكلب قطعاً من العجين، كان يلتهمها قطعة قطعة، وقالت:

ـ خلطت له مسحوق زجاجتيْن في هذا العجين. الله لا يقيمه!

ثمّ التفتت إلى ابنتها وضمّتها إلى صدرها.

قالت ميسون من خلال نحيبها الصامت:

ـ أبي. أبي دخل عند أبو شطارة.

فقالت أمّها:

ـ وماذا يعني؟ الرجال لا يخافون من الرجال.

فتساءلت ميسون:

ـ وهل أبو شطارة رجل مثل أبي؟

ثمّ أضافت:

ـ إنّه أقوى من كلّ الرجال. فهو يعيش مع الجنّ والأرواح.

قالت أمّ ميسون:

ـ هذا كلّه كلام فارغ.

قالت ميسون:

ـ إذا كان أبو شطارة رجلاً مثل بقيّة الرجال فلماذا نخاف منه؟

ـ ومن قال لك إنّنا نخاف منه؟

ونبح الكلب بصوت مبحوح طويل:

ـ هاووو. هاووو.

ثمّ أضافت أمّ ميسون:

ـ منذ اليوم لن نقبل حكماً للكلب ولأبو شطارة.

ولكنّي تمتمت في سرّي:

مسكينة ميسون. لقد فقدت أباها إلى الأبد!

إلاّ أنّ ما قلته في سرّي، وما توقّعه الناس من حولي، لم يحدث، إذ خرج أبو ميسون وبارودته اللامعة معلّقة على كتفه، وطرف قمبازه تحت حزامه وظلّ مبتسماً، وسنّه الذهبيّة تلمع، حتّى اقترب منّا، وأعلن قائلاً:

ـ قابلت أبو شطارة، وسمح لنا بقتل الكلب كما نشاء.

فقلت أنا:

ـ بالبارودة.

لكنّ صوتي ضاع وسط الأصوات التي علت هاتفة:

ـ «بالبلطة. بالبلطة. بالبلطة..»

وعدت فتمتمت في سرّي: «إنّ قتل الكلب بالبلطة تعذيب لا لزوم له، فالبارودة تختصر كلّ شيء بطلقة واحدة، تستقرّ في تلك الفسحة الوبريّة الفاصلة بين عينيه». وبقيت صامتاً أنظر كيف طوّق أبو ميسون عنق الكلب بحبل مبروم، ولعاب الكلب يسيل من طرف شدقيه مخلوطاً بالدّم. وسرت مع الناس صامتاً، وأبو ميسون يقتاد الكلب ويسير في المقدّمة، حتّى وصلنا إلى شجرة البلّوط الهرمة، الواقفة منذ زمن بعيد في طرف الحارة؛ وحافظت على صمتي، عندما أعطى أبو ميسون بارودته لزوجته، وشرع في ربط الكلب بجذع

الشجرة. ولكنّي شهقت عندما أهوى الرجل بالبلطة على الكلب، فلم تصب رأسه، وانزلقت إلى أعلى ظهره، وانتابني الخوف عندما أهوى أبو ميسون على الكلب بالضربة الثانية، فنزلت على عنقه، وجحظت عيناه باستماتة للانفلات والهجوم علينا، «كان قتل الكلب بالبارودة أفضل».

وصاح أكثر من صوت:

ـ على رأسه. على رأسه.

وأخيراً، نزلت الضربة القاضية على رأسه فتدفّق الدّم وتراخت أقدام الكلب، ثمّ تكوّم هامداً.

ومسح أبو ميسون العرق عن جبينه بسبّابته، وعدّل من وضع حطّته وعقاله في الوقت الذي تعالت فيه الأصوات:

ـ الله يعطيك العافية. الله يعطيك العافية.

وناولته زوجته بارودته وهي تقول:

ـ الله يعطيك العافية.

وردّ قائلاً:

ـ الله يعافيكم.

واقتربت ميسون منّي مزهوّة، وقالت بكبرياء:

ـ هل رأيت. لقد قتل أبي الكلب.

فقلت:

ـ نعم، ولكنّي لم أحبّ الطريقة التي قتله بها.

فقالت:

ـ المهمّ أنّه قتله!

وفكّرت قليلاً ثمّ قلت:

ـ صحيح، لقد أراحنا من شرّه.

وأضفت متسائلاً:

ـ ترى، كيف ستصبح الحارة بدونه؟

فقالت ميسون:

ـ جنّة. جنّة.

وقلت أنا:

ـ على الأقلّ نستطيع أنّ نمرّ في الطريق بلا خوف!

وركضنا معاً، بنشوة دافقة، وسألتها:

ـ كيف حال العضّة؟

فقالت وهي تلهث:

ـ سال منها الدّم ثمّ جفّ.

وبقينا نركض بهوس كالمجانين، حتّى اقتربنا من بيت أبـو شطارة، فتوقّفنا معاً، عندمـا رأينا كلبـاً جديـداً ضخماً، يجلس عـلى مؤخّرتـه، وأشعّة شمس الشتاء الدافئة تنعكس على وبره المبقّع بالبنّي والعسـلي. كان ينظر إلينا باحتقار وتحدّ، فتراجعنا حتّى التقينا بالآخرين.

كانون الأول ١٩٧٥

ممنوع لعب الشطرنج

«١»

حتّى هـذه اللّحظة، لا أدري لماذا حدث لي كلّ ذلك، ولم أعثر على تعليل مقنع وحاسم يبرّر ما قام به الرجل ذو النظّارة السوداء من أعمال غير مألوفة، كما لا أعرف حتّى الآن، كيف احتملت كلّ إساءاته وأذاه بهدوء وصبر.

«٢»

ـ أأنت الأستاذ «خ»؟

ـ نعم.

ـ وتعمل في المدرسة المجاورة لهذا المقهى؟

ـ نعم. ولكن لم نتشرّف بالمعرفة.

ـ أغلق فمك وانهض.

ـ ولكنّي أريد أن أعرف الجهة التي سنقصدها.

ـ ليس هذا من اختصاصك.

ـ وهل الذي سينهض شخص غيري؟

ـ لا تكثر من فلسفتك الفارغة.

ـ ولكنّي لا أستطيع التغيّب عن عملي.

ـ أنا أسمح لك.

ـ وهل ستخبر المدير بذلك؟

ـ سأبلّغه بالتلفون.
ـ ليس في المدرسة تلفون.
ـ حقّاً إنّك كلب وثرثار. انهض و.
ـ آ.

«٣»

أمسك بيدي، ووضعها بين أسنانه، وضغط عليها بقسوة، ويده الأخرى تفرك أذني. ثمّ كفّ عن ذلك، وأمرني بحمل الصحيفة التي كنت أقرأ فيها والتزام الصمت، حتّى لا نثير انتباه الآخرين الجالسين في المقهى.

«٤»

ـ ألا نستطيع أن نشرب فنجان قهوة معاً؟
ـ لا تحاول أن تبدو طيّباً. انهض.

«٥»

فكّرت بالهرب، ولكنّي وجدت أنّه سيجرّ عليَّ مزيداً من الأذى، ولفكّرت في أهمّيتي التي تجعل هذا الرجل الغامض يقتادني بهذه الطريقة، فلم أجد ما يستحقّ اهتمامه، مجرّد معلّم غير حائز على الثانويّة العامّة، ويدفع عشرة دنانير شهرياً لتسديد سلفة بنكيّة، ولم يعرف امرأة واحدة في حياته، سوى أنّه فاز بقبلة من ابنة الجيران الذين انتقلوا إلى بيت آخر، ويواظب على قراءة صحيفة يوميّة واحدة، ويدخّن صنفاً رخيصاً من السجائر، ويجيد الشطرنج الذي يلعبه في أوقات متباعدة.

وكدّت أصرخ في هذا الرجل الكابوس الذي يسير إلى جانبي، لكنّ الصوت مات في حلقي.

وأدخلني إلى شوارع ودهاليز وأزقّة وطوابق لا تنتهي، ثمّ توقّفنا في غرفة مليئة بالجماجم والهياكل العظميّة والصور العارية، وفيها لوحة كبيرة لرجل جليل ذي لحية مفروقة إلى شطرين، ويدخّن غليوناً، ويعلّق على كتفه بندقيّة من طراز قديم، وكلّ جدار من جدران الغرفة، مطليّ على شكل رقعة شطرنج كبيرة.

«٦»

ـ أتحبّ أن تشرب قهوة الآن؟

ـ أشكرك.

ـ أتعرف لماذا جئت بك إلى هنا؟

ـ لا أعرف.

ـ كي أسألك بضعة أسئلة فقط.

ـ أهذا كلّ شيء؟

ـ نعم، هذا كلّ شيء.

ـ ولكنّك كنت تقدر أن تطرح عليّ هذه الأسئلة في المقهى.

ـ كان بإمكاني أن أطرح عليك هذه الأسئلة في المقهى، هذا صحيح، ولكنّي لن أحصل على الإجابة التي أريدها في غير هذا المكان.

ـ ربّما.

ـ لا، بالتأكيد، قل لي منذ متى بدأت ممارسة لعبة الشطرنج؟

ـ لا أذكر.

ـ مهنتي أن أجعلك تتذكّر.
ـ منذ أكثر من سبع سنوات.
ـ ومنذ متى بدأت بتدريب زملائك على هذه اللعبة؟
ـ لم أدرِّب أحداً.
ـ مهنتي أن أجعلك تعترف بتدريبك لهم.
ـ ألاعبهم أحياناً.
ـ أليست ملاعبتهم تدريباً؟
ـ نعم هي تدريب.
ـ ولكنّك ستتوقّف عن ممارسة هذه اللعبة اعتباراً من اليوم.
ـ لا، من قال ذلك؟
ـ أنا الذي قال ذلك.
ـ سأحاول.
ـ بل ستتوقّف نهائيّاً.
ـ سأتوقّف نهائيّاً.
ـ أتحبّ أن تشرب قهوة الآن؟
ـ أشكرك.

«٧»

وحينما خرجت، كنت أكثر حماسة لممارسة اللعبة، ولكن بعيداً عن مراقبة الرجل ذي النظّارة السوداء.

كانون الثاني ١٩٧٤

شجرة معرفة الخير والشرّ

أذكر أنّني دخلت إلى المطعم بخطوات واثقة مطمئنّة، وتوجّهت نحو طاولة في آخر القاعة، عندما سمعت رجلاً يقول لزوجته بصوت غير منخفض تماماً، وهو يشير إليّ:

ـ هذا هو الشابّ المطلوب للدوائر الأمنيّة، لأنّه قام بأكبر عمليّة سطو في التاريخ.

وكانت ردّة فعل الزوجة تتراوح بين الدهشة والذعر، لكنّي لم أعبأ بذلك، مؤكّداً لنفسي أنّ الرجل أشار إليَّ سهواً، وهو يقصد شابّاً آخر من الجالسين في قاعة المطعم.

وقبل أن أجلس على الكرسي وراء الطاولة، ارتفعت وشوشات غير اعتياديّة، مصحوبة بنظرات تتفحّصني، ثمّ دنا منّي رجل أسمر الوجه، متين البنية، برم شاربه وقال:

ـ هل أنت جريء إلى هذا الحدّ؟

فتطلّعت إليه باستفهام، ثمّ أضاف:

ـ فعلتَ ما فعلتَ، وتدخل إلى مكان عام كهذا؟

لم أحمل كلام الرجل محمل الجدّ، وقلت لنفسي لا بدّ أنّه يمازحني، أو أنّني أحلم. وسألت:

ـ ما الذي فعلته كي أمتنع عن دخول مكان كهذا؟

عاد وبرم شاربه الذي استطال مع ابتسامته، وقال:

ـ كلّ الصحف تنشر صورتك منذ يومين، وأجهزة الأمن أعلنت تحت الصورة، عن مكافأة ماليّة تنتظر من يسلّمك إلى أقرب مخفر للشرطة، لأنّك قمت بأكبر عملية سطو في التاريخ، وأنت آخر من يعلم!

وأفلتت منّي كلمة:

ـ أنا؟

وقبل أن يعلّق الرجل بشيء، أخرج صحيفة مطويّة في جيبه، وفتحها، ثمّ أشار إلى صورة لي كُتِبَتْ فوقها بخطٍّ بارز كلمة «مطلوب»، وقال:

ـ أليست هذه صورتك؟

قلت:

ـ نعم.

قال مبتسماً:

أنا لا أرغب في المكافأة، لأنّني لا أحبّ أن أسلّم أحداً للشرطة، ولكنّي أقترح عليك أن تتصرّف.

قلت له:

ـ أنت رجل طيّب، وأنا لم أقم بعمليّة سطو.

فقال وهو يستدير عائداً إلى مقعده:

ـ شكراً، ولكن هذا لا يمنع أنّك مطارد ومطلوب.

وجاء الجرسون، فسألني بتردّد ماذا أريد أن تكون وجبة الغداء، فقلت له:

ـ أريد السكّين التي تقطّعون بها اللّحم.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ السكّين فقط.

ـ حاضر.

ومضى، ثمّ عاد وهو يحمل في كلتا يديه طبقاً من قشّ، ملقاة فوقه السكّين، ووضعه أمامي على الطاولة، وانصرف.

تأملّت حدّ السكّين فكان ماضياً، وقطعت رأسي من العنق، ووضعته على الطبق، وحملته إلى الرجل الأسمر.

كان منهمكاً في تناول طعامه، عندما قلت له مشيراً إلى الطبق:

ـ هذا رأسي، أرجو أن تسلّمه إلى أقرب مخفر للشرطة.

فازدرد لقمة في فمه كان قد مضغها ثمّ قال:

ـ خيراً فعلت، فلا داعي لأن تذهب بكاملك إلى هناك، ولكنّي لا أحبّ أن أسلّم أحداً، كما قلت لك.

ـ هذه خدمة أرجو أن تقدّمها لي، ثمّ إنهم لن يسلّموك مكافأة بدل الرأس وحده.

طارت حبّة أرز من فمه، عندما ضحك بصوت عال وقال:

ـ المكافأة للرأس يا أستاذ، لأنّه هو الذي قادك إلى السطو، وليست نمرة رجلك.

كفّ عن الضحك وأضاف:

ـ سأسلّم رأسك، ولكن ما يمنعك عن الذهاب معي، فقد يحتاجون أجزاء من جسدك.

قلت:

ـ لا شيء، نذهب معاً.

كان الشرطي مهتمّاً بتكملة مقطع من أغنية ساقطة، قبل أن ينظر في بطاقة كلّ منّا. وظلّ يهزّ بالكرسي مع الإيقاع، حتّى انتهى المقطع، وتفحّص بطاقة الرجل الأسمر، ثمّ أعادها إليه، وامتنع عن النظر في بطاقتي قائلاً:

ـ ألست أنت صاحب هذا الرأس؟

ولم ينتظر إجابتي حتّى قال بالانكليزيّة:

ـ YOU ARE WANTED.

وتثاءب وقال للرجل الأسمر:

ـ اذهب أنت إلى المحاسب لتأخذ المكافأة.

فأجابه:

ـ لا أريد مكافأة، وإنّما جئنا كي نسلّم رأسه بناء على رغبته.

ـ وهل تظنّ أنّ الدنيا فوضى؟ لقد أدخلت قيمة المكافأة في المصروفات والنفقات، ولا بدّ لك أن تستلمها.

تململ رأسي على الطبق وصاح:

ـ يحقّ له أن يكتب تنازلاً عنها، لتعود وتدخل مع الموجودات.

نظر الشرطي إلى رأسي باستصغار وقال:

ـ ما هذه الرذالة؟

واستعرضنا قائلاً:

ـ لا بدّ من استلام المكافأة.

وقبل أن يتفوّه الرجل الأسمر بأيّة كلمة، كانت يداه مربوطتين بسلسلة من الحديد، وشرطي صغير السنّ يدفعه للذهاب معه نحو دهليز خلفيّ في المخفر.

ونهض الشرطي عن كرسيّه، وطلب منّي أن أحمل الطبق وأسير معه، فأدخلني في سراديب متعرّجة طويلة، لم أرها من قبل، ثمّ ألقى بي داخل غرفة مستطيلة ومعتمة، وأغلق الباب خلفه ومضى.

رنّ في أذنيّ صوت له رهبة وصدى قائلاً:

ـ أتذكر عندما أوصيتك بالأكل من جميع الأشجار؟

ـ لا أذكر.

ـ وقلت لك بالحرف الواحد: أمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها.

ـ لا أذكر شيئاً من هذا.

ـ منعتك وخالفت. ها. ملعون أنت وأباؤك وأحفادك وكلّ سلالتك.

ـ لم أفعل شيئاً ممّا تقول.

ـ من الذي قطف الفاكهة الحمراء وأعطاها للعتّالة وماسحي الأحذية والشحّاذين؟

ـ أنا.

ـ ألم أمنعك من قطف ثمار هذه الشجرة من قبل؟

ـ لا أذكر، بل لا أذكر أنّني سمعت هذا الصوت من قبل.

ـ أنا أتحدّث معك الآن بواسطة مكبّر صوت.

ـ لا أفهم شيئاً ممّا يجري.

ـ تفهم فقط بممارسة السطو بمهارة. ها. ملعون أنت وأبناؤك وأحفادك وكلّ سلالتك.

ـ ما هذه التمثيليّة الرديئة؟

ـ تمثيليّة؟ أتظنّ أنّني مهرِّج تمثيليَّات أيّها العكروت؟ أتنسى أنّني أنا الذي أنجبك وصنعك؟

ـ أقبل كلّ شيء ما عدا التشكيك بأخلاق أمّي.

ـ لقد نفخت في أنفك نسمة حياة، فصرت نفساً حيّة، ومع ذلك تعاند وتكابر وتصرّ على أنّك لا تذكر شيئاً من هذا.

ـ أعتقد أنّك تقصد شخصاً آخر غيري.

ـ ضع رأسك بين كتفيك لأتأكّد من شخصيّتك.

ـ ولكن الغرفة مظلمة، ولن ترى شيئاً..

ـ أرى ما يُرى وما لا يُرى.

ـ ما هذا الكلام؟

ـ ضع رأسك بين كتفيك.

رفعت رأسي عن الطبق، ووضعته في مكانه، ولذت بالصمت، حتّى عاد الصوت فقال:

ـ أنت الذي أعلنت عنه في الصحف المحلّية، وأنت الذي سطا على شجرة معرفة الخير والشرّ.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ سبق وأمرتك بأن لا تأكل من ثمار هذه الشجرة، لأنّك يوم تأكل منها موتاً تموت!

ـ وهل سأموت الآن ميتة نهائيّة؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنّني مدفون في الحياة، فليأت دفني في الموت الأبديّ على يديك.

ـ سأحرمك من هذه الراحة، وأكتفي بالإعلان عنك مجدّداً في الصحف والإذاعة والتلفزيون، لأخبر كافّة المواطنين، أنّك ارتكبت الخطيئة الأصليّة، وتعلّمت مضاجعة النساء، وستظلّ لعناتي تطاردك إلى أبد الآبدين.

وما كاد الصمت ينخر في أعماق عتمة الغرفة، حتّى وجدت نفسي أقول بحدّة:

ـ أبانا الذي يجلس في العتمة، لا أريد أن أدفن في الحياة ولا أريد أن يظلّ رجالك يتركون ميكرفونات مسجّلاتهم تتدلّى من نوافذ غرفتي.

وأقول:

ـ أبانا، هل تثير صراحتي غضبك؟ وهل يغضبك حبّي للفاكهة الحمراء والأجساد التي تعشّش العناكب في حناياها؟ وهل تغضب من رجل خبزه كفاف يومه، يرتاح لابتسامة أمّه، ويهتمّ بالورود المتفتّحة؟

وأضيف:

ـ أبانا، إنّ نفسي حزينة حتّى الموت.

مغارة السنديانة

ما إن يتذكّر «سالم» تلك اللّيلة المرعبة، حتّى تنتابه قشعريرة وترتعد كلّ خلايا جسمه، ويكاد شعر رأسه أن «يقف» ثمّ تبحلق عيناه بذهول في موطئ قدميه، ويتدلّى رأسه فوق صدره، وتصيبه «السرحة» التي ما إن تنتهي حتّى يتذكّر «ربيعة» بنت «حمدان الناطور»، فتنتصب خيبة أمانيه أمامه كشبح كريه.

وربّما استطاع «سالم» أن ينسى كلّ الوجوه التي يعرفها، والطرقات الترابيّة والبيوت الوقورة التي تملأ حارات القرية، وربّما استطاع أن ينسى أنّ اسمه «سالم الحاج سيف الدين العلي»، ولكنّه لا يستطيع أن ينسى تفاصيل كلّ ما حدث في تلك اللّيلة اللّعينة، منذ أن ذهب مع أبيه للسهرة في بيت «حمدان الناطور»، وحتّى عاد إلى البيت متّكئاً على أكتاف الرجال، ولعابه يسيل من فمه ويتأوّه مرهقاً:

ـ «آه. يا يابه. آه..»

كيف ينسى كلّ هذه التفاصيل، وقد حفظ النّاس جميعهم الحكاية، وصارت الأمّهات يروينها لأطفالهن، والجدّات يروينها لأحفادهن، كما حوّلها الأطفال إلى لعبة مضحكة مسلّية يلعبونها في الحارات، ويسمّونها «حنتش بنتش»؟ .(*)

(*) كلام موزون لا معنى له، وأغلب الظنّ أنّه استعمل لضرورة السجع فقط في: «حنتش بنتش واللّي بلحق ينتش».

وما إن يتذكّر «سالم» ذلك أيضاً، حتّى يؤكّد لنفسه من جديد أنّ «ربيعة» تحالفت مع حظّه السّيّئ لإلحاق كلّ هذه التعاسة به! فمنذ أن كان يلعب «المنقلة» في دكّان «أبو نقولا» مقابل عين الماء التي تملأ البنات والنساء جرارهن منها، بدأت «ربيعة» تدخل حياته وأحلامه. فبعد أن ملأت جرّتها، أمسكت بها من الجانبين، ورفعتها على رأسها، فارتفع ثوبها أيضاً، وظهرت إحدى ساقيها بيضاء، نقيّة، فيها لمعان يخطف البصر، وعلى الفور ألقت بالجرّة على الأرض، وشدّت ثوبها إلى الأسفل وقد اجتاحها خجل لا يحدّ، فهبّ «سالم» راكضاً نحوها لمساعدتها، لكنّها لم تلتفت إليه، وعادت إلى البيت راكضة. فنظر إلى حطام الجرّة بأسف وحزن. ومنذ ذلك اليوم، صار مثابراً أكثر من كلّ الأوقات السابقة، على «المنقلة» ومواظباً على القعود الطويل في الدكّان، حتّى أنّ «أبو نقولا» يتركه أحياناً، ويذهب إلى البيت للغداء أو لإرسال حاجة ما. كما صار «سالم» يعرف مواعيد مجيئها للعين. في الصباح الباكر، أو قبل غياب الشمس بقليل.

ولأنّه يشعر بالحرج من الذهاب إلى الدكّان في وقت مبكر من النهار، ولأنّ هذا قد يثير شكوكاً وتأويلات قد تصل إلى حدّ لا يرضيه ولا يرضي أقرباءه، فقد كان يكتفي بالوقوف أمام البيت، وينظر إليها من بعيد وهي تحمل جرّتها الصغيرة وتسير على طريق العين الترابيّ. ورغم أنّه يراها من بعيد، إلّا أنّ إحساساً بالانزعاج وعدم الارتياح يظلّ مرافقاً له طيلة اليوم خاصّة وأنّ ذهابها للعين في الصباح، يعني عدم الذهاب في وقت آخر من النهار. أمّا إذا طال وقوفه بحوش البيت، وانتظاره لمرورها، فإنّ إحساساً بالبهجة يبدأ بالتسرّب في

جسمه، ويتشعّب فيه مع شرايينه.. وقبل أن يتوجّه إلى دكّان «أبو نقولا» يحلق ذقنه جيّداً ويتحسّسها ليتأكّد من نعومتها، ثمّ يقرّب وجهه كثيراً من المرآة ويبصق على سبّابته، ويدهن شاربه الأشقر باللّعاب، ثمّ يخطّط فوقه بقلم «كوبيا» حتّى يصبح لونه غامقاً مناسباً للون بشرته الحنطيّة الصافية، ولا يغفل عن ترتيب الكوفيّة البيضاء فوق رأسه والموازنة بين طرفيها، قبل أن يضع العقال مائلاً فوقها، كما لا يغفل عن التأكّد من نظافة قمبازه ولمعان حذائه، وأثناء هذا كلّه يراقب أمّه ليسطو في غفلة منها على زجاجة عطر حجازي أحضره أبوه معه من الحج! وفي كلّ مرّة يحاول «سالم» أن يذهب إلى الدكّان بعد آذان الظهر، لكنّه لا يحتمل الانتظار ولا يقوى على الصمود كثيراً، فيخرج من البيت، متمهّلاً في مشيته، محاولاً أن لا يدوس بقوّة على التراب كي لا يغبرَّ الحذاء، ويفقد شيئاً من لمعانه.

وبمجرَّد أن يراه «أبو نقولا» مقبلاً، يضع «المنقلة» بانتظار وصوله، لمباشرة اللعب فوراً، فهو يجرّب كلّ يوم أن يغلب «سالم» ولو مرّة واحدة، لكنّه يفشل دائماً، ما جعل حماسه لمتابعة اللعبة، وإصراره على الاستمرار في اللعب مع «سالم» فقط دون سائر الرجال، يزداد أكثر فأكثر. وقد لمس «سالم» هذا الأمر بوضوح، واعتبره مبرّراً مقنعاً لتردّده اليومي على الدكّان، لكنّ المبرّر الحقيقي لم يبح به أبداً. صحيح أنّه اكتشف نفسه يحبّ «ربيعة» من كلّ قلبه، وصحيح أنّه لن يرضى بديلة لها كزوجة له، ومع ذلك، فقد ظلّ مصمّماً على عدم فتح الموضوع مع أمّه أو مع أبيه«الحاج سيف الدين» نهائيّاً، حتّى تبدأ «ربيعة» تشعر به وتعيره بعض الاهتمام مهما كان ضئيلاً. أمّا كيف

يجعلها تشعر به وتعيره بعض اهتمامها، فهذا ما كان يحيّره!

وعندما يراها قادمة نحو العين، يزعم أنّه بحاجة للوقوف قليلاً، فيتمطّى ويتلمّس عقاله فوق رأسه، ويخرج علبة التبغ «الأحمر» ويلفّ سيجارة، ويدندن بألحان مضطربة، ويعود ليتمطّى من جديد، ويفرقع فقرات ظهره وعنقه، وينفث الدخان من فمه، وهو يتلمّظ، ويتفل التبغ الذي يتسرّب من مؤخّرة السيجارة إلى فمه، ثمّ يتحسّس شاربه، ويستبدل الدندنة بالصفير. يفعل «سالم» كلّ هذا و«ربيعة» تحمل جرّتها، وتمشي بثبات، وعيناها مغروزتان في تراب الطريق. والحقيقة أنّه بذل جهوداً متواصلة أرهقت شرايين رأسه، من أجل تفسير تجاهلها له، فلم يصل إلى نتيجة واضحة مقنعة، ويكتفي بالقول إنّها بنت خجولة، وتربيتها ممتازة، كتعزية لقلبه الموجع ونفسه الحزينة.

وعندما ذهب مع أبيه «الحاج سيف الدين» للسهر في بيت «حمدان الناطور» وجد الفرصة المفقودة التي طال بحثه عنها متاحة له تماماً، ليعلن عن وجوده ويؤكّده «لربيعة».

فبعد أن جلس الرجال في حلقة دائريّة، بدأت الأحاديث، وكلّ حديث يجرّ آخر، حتّى وصلوا إلى الضباع والأشباح والبيوت «المسكونة» وتوقّفوا عند «مغارة السنديانة».

ومجرّد ذكر «مغارة السنديانة» يثير في نفوس الناس إحساساً بالذعر والهلع! فقد عرفوا أنّ في أعماقها الغامضة فريقين من الأشباح يتخاصمان فيما بينهما بصورة مستمرّة من أجل اقتسام أهل القرية، وقد

وشجاعته المهزومة تهزأ به، ومع ذلك، فقد ثبّت الوتد في الأرض تماماً، وفيما هو ينهض قال:

ـ «حنتش بنتش واللّي بلحق ينتش».

وهمّ بالانصراف، لكنّ قوّة لا يعرفها سحبته من الخلف، وأوقعته فوق الأرض فاقداً وعيه.

ولم يستعد وعيه إلّا عندما كان يسير متّكئاً على أكتاف الرجال، ولعابه يسيل من فمه، ويتأوّه مرهقاً:

ـ «آه. يا يابه. آه..»

ولمّا أوصله الرجال إلى البيت، ووجدوا طرف قمبازه ممزّقاً، عرفوا أنّ «سالم» قد دقّ الوتد فيه وفي الأرض، ممّا أدّى إلى وقوعه عندما همّ بمغادرة المغارة، ولم تكن الأشباح سبباً في ذلك. ومع هذا، فلم يجرؤ رجل واحد في القرية على القول: إنّ «مغارة السنديانة» فارغة ولا أشباح فيها!

٥تشرين أول١٩٧٢

المكوك

كان الرجال يسهرون في بيت المختار، يشربون الشاي بالنعناع الأخضر، ويصغون بكلّ أعماقهم إلى ربابة «حسّون»، و«الشروقي» الحزين الذي يردّده بصوته. وحكت الربابة الزمن الذي لا يستقرّ على حال، وطلبوا من حسّون إعادة المقطع الذي يقول فيه عن الزمن إنّه متقلّب وغادر [1]، فأعاده أكثر من مرّة، والتنهّدات والحسرات تتصاعد من صدور الرجال كتصاعد البخار من قدر فوّار. وفجأة توقّف الغناء، وصمتت الربابة، وهبّ الجميع ليصافحوا عوّاد النجماوي[2] الذي عاد من عمله على غير توقّع، فصافح الرجال ببرود، ولاحظوا التجهّم والغضب في وجهه، فسأله المختار:

ـ «خيراً إن شاء الله؟!»

واكتفى بأن هزّ رأسه بإيماءة قصيرة، ثمّ اصطحب والده العجوز

---

(١) عجز البيت: «عقب الهنا يسقيك كاس الصداع» وهو باللهجة البدويّة.

(٢) كان يعمل في «قوّة الحدود» أيّام الانتداب البريطاني، ويعتبر في القرية من الناس الذين تنوّروا ورأوا الدنيا، وما فيها من عجائب. وكثيراً ما كان يروي لهم الحكايات التي كانوا يعتبرونها شبيهة بالكذب، عن حياة المدن التي زارها، وعن تقاليد الانكليز واليهود. وعندما وصف لهم جهاز الراديو، وقال لهم إنّه رآه بعينيه كالسحّارة، وسمعه بأذنيه يتحدّث ويغنّي كبني آدم، تهامس الجميع، ونظروا إليه نظرة كلّها ريبة وتكذيب، ولكنّهم لاحظوا الجدّ في وجه الرجل، فصمتوا احتراماً لا غير.

إلى الحوش، وتساءل الجميع بريبة وحذر[٣]، إلى أن عاد عوّاد ووالده.

قال الرجل العجوز، والفزع في ملامحه، مخاطباً الرجال وعيناه مصوّبتان تجاه المختار:

ـ «قدّامكم يا جماعة.. لا تسمّوني رجلاً إذا لم أقتلها!»

وسرت همهمات من الشفاه، ورفع الرجل عقاله ووضعه حول عنقه، وأزاح الكوفيّة عن رأسه، فبدت صلعته التي تكاد تتّصل بظهره، وقال:

ـ يحرم عليّ لبس العقال والقعود بين الرجال إذا لم أقتلها هي واليهودي ابن الهرمة الذي تعاشره».

وخرج العجوز واضعاً طرف قمبازه بين أسنانه، ويده على الشبريّة، ورافقه أحد أبنائه[٤] ليعيد البغل بعد أن يوصل أباه إلى الطريق العام.

وعرفت «حلوس»[٥] كلّها ـ حتّى الأطفال ـ تفاصيل الخبر المثير،

---

(٣) كان هناك عدد غير قليل من النجاويّة، وهم نصف سكّان القرية، وقد بدت عليهم الحيرة كغيرهم.

(٤) غير عوّاد.

(٥) وهو اسم مستعار لإحدى القرى الأردنيّة، والحقيقة أنّ جميع سكّانها ـ منذ أيّام الأتراك وحتّى نهاية الحرب الثانية ـ كانوا يعيشون بسلام وهدوء، ولا شيء يعكّر صفو أحلامهم ويقلقهم في مضاجعهم سوى الخوف من القحط. وقد كانوا متكاتفين ضدّ أي خطر يهدّد أحدهم، فعندما أرسل الوالي بعض عساكره إلى المختار، ليأخذ قائمة =

وانجلت الحكاية على حقيقتها، وأصبح اسم «نزهة»[٦] معروفاً لدى الجميع.

وأصل الحكاية أنّ فؤاد أمين[٧] بدأ يتردّد على بيت عوّاد بين الحين والحين، ما أثار غضب النجماويّة، واضطرّهم لأن يفهموه بالذوق أن يقطع رجل فؤاد عن زيارته، للمحافظة على سمعة ابنته وامرأته، وتساءل أهل حلوس عن السبب الذي يدفع الشاب ليجيء لزيارة عوّاد من آخر الدنيا. من يافا إلى حلوس، يقطع «الشريعة»، ويجتاز هذه المسافات الخياليّة. أيفعل كلّ هذا من أجل سواد عيني عوّاد؟

وظلّ السؤال معلّقاً في الحناجر، حتّى أعلنت خطبة نزهة إلى فؤاد! وكان يوماً مشهوداً من أيّام القرية، ارتفع فيه صوت البارود إلى السماء، وعلت الزغاريد، وخرجت القرية عن بكرة أبيها لتشهد

= بأسماء أهل القرية لكي يدفعوا الضرائب، رجموهم بالحجارة، وأطلقوا النار على أحدهم، ما تسبّب في موته، ولجأ الآخرون إلى الهرب. ولم يروا بعد ذلك اليوم وجهاً لتركي حتّى غادروا البلاد. واعتاد رجال القرية أن يقضوا سهراتهم كلّ ليلة في بيت أحدهم، يمضونها بلعب الباصرة والهاند وشرب الشاي وسرد حكايات أبي زيد الهلالي، والزناتي خليفة، والاستماع إلى صوت حسّون وهو يغنّي «الشروقي» الحزين على ربابته. وفي سنوات غلال المحاصيل ترتفع الهمم، وتزداد الثقة بالنفس، وتجتاحهم نوبات الكرم، فلا يلعبون الشدّة إلاّ إذا تكفّل المغلوب بشراء رطل راحة أو رطل هريسة ليأكله الجميع بالتساوي. وفي حالات الوفيّات كان الكلّ يحزن، ويعزمون «المناقيص» كلّ يوم عند أحدهم بالتناوب.

(٦) ابنة عوّاد النجماوي، وهي السبب في كسر رقاب نصف رجال القرية وإذلالهم حتّى اليوم.

(٧) وهو صديق لعوّاد النجماوي من يافا، أعزب، ويصغر عوّاداً بخمسة عشر عاماً على الأقل.

الوجوه الجديدة التي تملأ باصاً وتاكسيّاً جاءا من يافا، كما كان عوّاد قد أعدّ باصاً آخر ليحمل أهل العروس[٨].

وبعد مرور أيّام[٩]، أصبح كلّ شيء جزءاً من أحاديث الذكريات، وعادت القرية تعيش أيّامها ولياليها السابقة مع الشدّة والحكايات والربابة.

وفوجئت حلوس[١٠] بعودة نزهة! وسرعان ما التقت الرؤوس وكثر الهمس حول عودتها التي لم يتوقّعها أحد بالمرّة[١١]. وفي نفس اليوم الذي وصلت فيه، ضربها جدّها العجوز[١٢]، حتّى سال الدّم من أنفها وفمها وتورّمت عينها اليمنى، ووصفها بأنّها جحشة لا تميّز بين الخير والشرّ، وعليها طاعة زوجها[١٣]، وما إن تسلّل أوّل شعاع من شمس فجر اليوم التالي، حتّى كانت نزهة تعتلي ظهر حمار، وجدّها

---

(٨) نظر الأولاد والرجال والنساء إلى الباصين والتاكسي نظرة ذهول، ولكنّ المشهد العجيب الذي يرونه لأوّل مرّة لم يفقدهم الإحساس بالبهجة. وتحرّك التاكسي مزوّقاً بالأشرطة الخضراء والحمراء والزرقاء، يقلّ عوّاداً وأباه وأمّه وزوجته وابنته، وتبعه الباصان يغصّان بالكتل الآدميّة، مخلّفين وراءهما الأطفال والعجزة والخائفين على أرواحهم من الموت بهذا الصندوق الضخم الأعمى.

(٩) حدث كلّ هذا وما تلاه في الفترة ما بين نهاية الحرب الثانية وبداية حوادث فلسطين.

(١٠) بعد شهر تقريباً.

(١١) واستطاعت النساء التقاط الأخبار التي لا يتسرّب إليها شك، فقد اختلفت نزهة مع فؤاد، وضربها ثمّ طردها من بيته.

(١٢) لغياب عوّاد في عمله.

(١٣) خشيت نزهة أن تنقل لجدّها قول فؤاد لها بالحرف الواحد، أنّ دمّها غير «مطابق» لدّمه، ولذلك فهو يكرهها كرهه للعمى.

يركب بغلاً، ويسيران نحو الطريق العام المؤدّي إلى «الشريعة».

وما كادت القرية تستعيد هدوءها، حتّى ذهل الجميع بعودتها إليهم من جديد، وتكرّر المشهد، وعادت إلى يافا[١٤].

وذات مساء، وعندما كان عوّاد يسير في ساحة باب العامود بالقدس، فوجىء بما جعل عقله يختلّ: نزهة تركب في تاكسي بجانب شاب يبدو أنّه يهودي!. وركض عوّاد وراء التاكسي، ركض حتّى خرج معظم لسانه من فمه، ولكنّ نزهة غابت عن ناظريه[١٥]. وأخيراً وجد أن تبليغ النجماويّة هو الحلّ الأفضل[١٦]

وطالت غيبة العجوز، وعندما عاد، كان مطأطىء الرأس، وعقاله ما يزال حول عنقه. وأحسّ النجماويّة بالمذلّة والعار، وتمنّوا لو يطمرون بالرماد والتراب.

وزمّت النساء شفاههنّ في غيظ وألم، وتمتمن:

ـ «يا عيب الشوم. خطفها اليهودي».

وظلّ خيال نزهة يطاردهم كالعفريت، ويلاحقهم حتّى في الأحلام.

كانون أول ١٩٧١

---

(١٤) ثمّ رجعت من يافا إلى حلوس، ومن حلوس إلى يافا أكثر من ستّ مرّات، ولنفس السبب، ما جعل الناس يسمّونها بالمكوك، وهو التعبير الذي وصفه لهم عوّاد في مناسبة ما. وعندما أعيدت في المرّة الأخيرة، لم ترجع بعدها إلى حلوس أبدا!.. ثمّ استعادت القرية صفاءها ولياليها الساهرة، وانقضت عشرة شهور تقريباً دون أن تحكي الألسن حكاية جديدة عن نزهة.

(١٥) وظلّ أسبوعاً كاملاً يحاول العثور عليها أو على السيّارة التي هربت بها دون جدوى.

(١٦) واستطاع أهل حلوس أن يؤكدّوا أنّ نزهة لم تعد تحتمل أن يضربها أهلها لتعود إلى زوجها ويضربها بدوره، ففضّلت الهرب.

صفر على الشمال

لم يكن ما فعله مرزوق حدثاً غريباً مفاجئاً لزوجته، مع أنّها تعرف هدوءه الشبيه بهدوء الكلاب الأليفة، وتعرف أنّه آخر من يتكلّم أو يبدي رأياً بين رجال البلد، (كأنّه يعشق الحكمة النفيسة القائلة بأنّ السكوت من ذهب)، وتعرف أنّه لا يستطيع كسب قوته وقوت أطفاله السبعة كبقيّة الرجال «الملحلحين» لأنّه ضعيف، تعرف كلّ هذا، ولكن ما فعله لم يجعل شعرة واحدة من جسمها تهتزّ، ولم تشهق وتدقّ صدرها مذهولة، وقابلت كلّ شيء بصمت. وكلّ ما فعله كان من الجائز أن لا يفعله لولا حكاية السيِّدة «كريمة» التي شغلت العقول عدّة أيام متوالية.

ومرزوق، وُلِد لكي يكون نجّاراً، فقد ورث الصنعة عن أبيه، ومع الصنعة ورث عدّة الشغل أيضاً. ورغم أنّه النجّار الوحيد في البلد، ويجيد حرفته كما يجيد جمع واحد وواحد، فقد قرف النجارة وكل ما يمتّ للخشب بصلة قريبة أو بعيدة، والسبب أن لا أحد يحتاجه إلاّ في حالة الزواج ليركّب خزانة، أو في حالة الوفاة ليصنع تابوتاً، وفي حالات استثنائيّة نادرة، كتصليح رجل كرسي مخلوعة، أو صنع قفص عصافير، أو تناديه إحدى الجارات ليثبّت خزانتها التي تتمايل، لأنّ إحدى أرجلها قصيرة، ومع أنّه يعلم مقدّماً أنّ أرض الغرفة غير مستوية، وليس السبب قصراً في رجل الخزانة، فإنّه يذهب ويدسّ قطعة كرتون تحت الرجل المسبّبة للميلان، وفي هذه الحالة

يخجل من أخذ أجرته. لقد قرف النجارة عندما لاحظ أن أجرته أصبحت في الغالب عبارة: «شكراً. الله يعطيك العافية»، وإذا أخذ أجرة فإنّها تكون في الغالب بين خمسة قروش وعشرة، أمّا في الحالات الخاصّة، فإنّها تصل إلى ربع دينار. وكان يعمل يوماً في الأسبوع و«يستريح» ستّة أيام، الأمر الذي زاد في قرفه، فلعن أبا الدنيا، وفاتح زوجته بقلقه، فقالت:

ـ «يا سلام عليك يا مرزوق، صنعتك أكبر نعمة..»

فأجابها:

ـ «ولكنّها لا تطعم خبزاً..»

ـ «لو أنّ غيرك يعرف صنعتك لدرّت عليه ذهباً».

ـ «المهمّ. أتريدين أن نموت من الجوع؟»

ـ «لا أحد يموت من الجوع».

ـ «والأولاد؟ سبعة أولاد»

ـ «الله لا ينسى عباده وكلّ واحد ورزقه معه».

ـ «غريبة».

ـ «ما غريب إلاّ الشيطان».

ودائماً يضايقه فهمها السخيف للأمور، فيسكت أو يحاول أن يغيّر موضوع الكلام. وحافظ على هدوئه وقال:

ـ «فكّرت بشراء ماكنة خياطة لك»

فأجابته:

ـ «ومن أين اسم الله عليك هذه الأفكار، هل دلّك عليها أحد أم من رأسك أنت؟ لا يمكن أن تكون من رأسك»..

فقاطع سيل الكلام المصحوب برشّاش من لعابها:
ـ «يا شيخة اسكتي».
وتنحنح، ورمش رمشات عديدة متتالية ثمّ قال:
ـ «ما رأيك بالفكرة؟»
ـ «ما لزوم المكنات الآن؟ ضائقة وتنفرج».
ـ «ومن الذي سيفرجها يا بنت الناس؟ من يوم زواجنا ونحن على حالنا. لا بل نمشي إلى الوراء مثل بول الجمال».
ـ «وما له حالنا؟»

وكاد غباؤها أن يرديه قتيلاً، فخرج مخلّفاً وراءه الذباب والأطفال، واجتاز ردهة الحوش بخطوات، فكان على الطريق الترابي المؤدّي إلى سوق البلد، حيث يتجمّع الرجال يلعبون طاولة الزهر والمنقلة، ويظفرون بسماع آخر الحكايات، كانت الشمس في منتصف السماء، وظلال الأشياء قصيرة متكوّمة، وأنفه ينضح برائحة التراب الذي لوّحته الشمس ولمح كومة من الرجال المتجمهرين أمام بقالة «التوكّل على الله»، استطاع أن يميّز منهم علي الدردير صاحب الدكّان وصالح أبو شمعة ويوسف الحلّاق، وعندما اقترب منهم أكثر، استطاع أن يميّز المختار وعبد العليم العطا. ولمّا دنا من الدكّان لمحه علي الدردير، فقال بصوت ممطوط له ذيل طويل:
ـ «أهلاً مرزوق».

فالتفت الرجل صوبه، في حين قال يوسف الحلّاق موجّهاً كلامه إلى الرجل:
ـ «لقد نسينا مرزوق يا جماعة!»

وضجّ الجميع بالضحك، وطال ضحكهم، ووجه مرزوق حائر بين الحمرة والزرقة، (ويرمق صالح أبو شمعة بطرف عينه، فهو الوحيد الذي يدافع عنه ويتكلّم بلسانه)، وقال أبو شمعة:

ـ «اضحكوا كما يحلو لكم، فالسيِّدة كريمة كلّها نظر ولا تنسى أحداً».

كريمة. كريمة. في البلدة كلّها لا يوجد هذا الاسم. أتكون كريمة العطا؟ ولكنّها ببلاد «برّا» منذ سنين طويلة جدّاً، بل قبل أن يولد. ووقف بجوار أبي شمعة وسأله عن حكاية كريمة، فأجاب هامساً:

ـ «لقد أرسلت برقيّة لعبد العليم..»

فسأله بهمس:

ـ «وماذا تقول فيها؟»

ـ «ستحضر بعد ثلاثة أيّام..»

وابتسم من أعماقه، وكاد أن يقترح على الرجال أن ينصبوا الدبكة منذ الآن، وأن يعمّم المختار على الناس أن يغسلوا ملابسهم لكي يبدو الجمع نظيفاً ساعة وصولها، والحاضر يعلم الغائب. لا بل على العكس، أن يعمّم عليهم أن يتركوا كلّ شيء على حاله، الملابس الممزّقة القديمة المتّسخة، والأطفال الشاحبين القذرين والذباب يخيِّم عليهم، لكي ترى الحال الذي يعيشون فيه، لكنّه لم يجد الجرأة الكافية في نفسه للجهر بالكلام.

وعاشت البلدة في اليومين التاليين في حالة ترقُّب وانتظار وقلق، وقد كان الذين يذكرون شكلها قلائل جدّاً، بل إنّ عبد العليم نفسه

لا يذكر ملامح شقيقته، لأنّها أكبر منه بسبعة أعوام، وغادرت البلدة وهو ما يزال طفلاً يجري ويلعب في الحارات، ويكاد يرسم لها صورة مهزوزة في رأسه: فتاة لا تتجاوز الستّة عشر عاماً، وجهها ورديّ اللون، وجسمها مشحون بالنشاط والحيويّة، ويضيف من خياله شكل ملابسها، فهي لا بدّ ترتدي فستاناً قصيراً بكمّ أو بلا أكمام على الإطلاق.

وفي هذين اليومين تغيّر الكثير من ملامح البلدة، فقد زوَّق علي الدردير دكّانه بأغصان الدفلى والزيتون على اليمين واليسار، فبدا منظر بقالة «التوكّل على الله» جميلاً مريحاً للنظر، وحذا حذو الدردير كثيرون، فقد أحضر يوسف الحلاّق (حلاّق البلد بلا منافس) الدفلى والزيتون ووضعها على باب «صالون الأمل للحلاقة»، وكلّف بعض الأولاد فأحضروا له ضمّة كبيرة من الدحنون، ووضعها في كوب ممتلئ بالماء حتّى منتصفه، وكذلك فعل عبد العليم (قصّاب البلد بلا منافس أيضاً)، ولكنّه غرس الدحنون والبابونج بين أضلاع الذبائح المعلّقة. وتسامح كلّ أصحاب الدكاكين مع الزبائن فأعطوهم حاجياتهم على الحساب ودونما سؤال أو جواب. أمّا النساء، فقد كنّست كلّ واحدة منهنّ أمام بيتها، حتّى الطريق الذي يمشي عليه الناس والبهائم، وكلّ واحدة تروي كيف رأت كريمة في المنام، ورأينها جميعهنّ صبيّة فتيّة تملك مال الدنيا كلّها، ومنهنّ من رأتها تقول لها خذي هاتين البقرتين مع مائة دينار مثلاً، ومنهنّ من رأتها تعطيها النقود الكثيرة فقط. وقد بات الجميع لا يتكلّم إلاّ عن كريمة أو ما يتعلّق بها، ولا يفكّر إلاّ بكريمة أو ما ستحدثه من تغيير في

حياته، ولا يفعل شيئاً إلاّ وخيال كريمة يظلّل كلّ حركة يقوم بها.

أمّا مرزوق، فقد عاش اليومين التاليين لوصول البرقية، وكأنّه يركب أرجوحة، وبين يديه الخاتم السحري يقول له: «شبّيك لبّيك عبدك بين يديك». ولم يستطع البوح بأحاسيسه لغير زوجته ورأى كلّ أمانيه تحقّقت، ماكنة الخياطة، رأس مال صغير ليشتري عشر دجاجات، ورقصت رموشه بسرعة البرق عندما تصوّر الأيام الخضراء الخصبة التي تنتظره، ففي الوقت الذي تصبح فيه جيوب الناس عامرة، فلا شكّ أنّ حرفته ستكون ذات قيمة، وقد اكتفت زوجته بأن قالت:

ـ «قلت لك. الله لا ينسى عباده..»

واكتفى بأن هزّ رأسه علامة الاقتناع التام.

وفي صباح اليوم الثالث، وقفت البلدة صغيرها وكبيرها في السوق، ينظرون باتجاه الشرق، نحو الطريق الطويل الملتوي الغائب في نهايته خلف جبل غير شاهق العلوّ، وكانت أشعّة الشمس تكاد تحجب الرؤية، فكان الجميع يضع يده بشكل أفقي على حاجبيه، لكي يتّقي الضوء الكثيف المنصبّ في الأعين. الأنظار كلّها عند التقاء الطريق مع الجبل، عند أوّل نقطة تظهر فيها العربة القادمة إلى البلدة.

وذهل الجميع، كادوا أن يقعوا مغشيًّاً عليهم، عندما جاء ابن المختار (وهو موظّف في مكتب البريد) ملوّحاً بورقة في يده، قائلاً:

ـ «غيّرت رأيها. لن تحضر. هذه برقيّة منها!».

وقرأ نصّ البرقيّة: «سأحضر في فرصة أخرى، آسفة جدّاً لأنّني اضطررت لهذا، اعتذاري وتحيّاتي لكم. المخلصة كريمة».

وانفرط عقد الجمع المحتشد، وعاد كلّ واحد لحاله، واقتاد مرزوق زوجته وأولاده إلى البيت، وإحساس بأنّه لا نفع له يرافقه، ولأنّها تلكّأت قليلاً في مشيتها، انطلق سيل من الشتائم من فمه كما ينطلق الماء بغزارة من خرطوم الحريق، ولكنّها صمتت، واكتفت بأن نظرت إلى زوجها نظرة ذات معنى.

نيسان ١٩٦٧

الرجال يمرّون من هنا

(إلى رجال المقاومة الفلسطينيّة ١٩٣٦)

أمّا أن تنتهي آمال «رائد» كلّها، ويتبدّد حلمه المزركش الجميل هكذا مرّة واحدة، ويصبح كلامه المزوّق الأنيق لـ «شريفة» عن المستقبل مجرّد كلام، ويعود إلى البيت بجرّ وراءه ذيلاً طويلاً من الفشل ليلوك الجوع والفراغ والتثاؤب، فجأة وبلا تمهيد، فهذا ما كان يتوقّعه بين يوم وآخر، لا بل وينتظره، وكأنّ حدوثه أمر مفروغ منه، ولكن الذي كاد يطير مخّه من رأسه، ويحدث هزّة عنيفة في مفاصله، هو أنّ كلّ شيء انتهى لسبب تافه كالبصقة!

ورائد، كان يحلم، ككلّ أبناء جيله الذين لم يتجاوزوا العشرين عاماً، يحلم بالوظيفة والراتب والمستقبل، ورغم أنّه يحمل شهادة السابع الابتدائي (وهي كفيلة بأن تجعل منه موظّفاً محترماً)، فقد رأى كلّ آماله وكأنّها سراب يصعب عليه أن يقبضه. عندما كان في الثانية عشرة، كان يحلم بالوظيفة في مكتب بريد القرية، وبالبذلة الزرقاء الغامقة ذات الساقين الطويلتين في الشتاء والقصيرتين في الصيف، والبصطار الأسود المتوهّج، والأزرار الصفراء اللامعة على طول فتحة الجاكتة (بالإضافة إلى اللباس الأنيق المميّز)، وبالسبع ساعات من الدوام، والعطلة الأسبوعيّة، والثلاثة جنيهات والنصف التي يتقاضاها كلّ شهر، والمركز المرموق بين الناس، والمستقبل الدافئ مع شريفة، والنظام الانكليزي الدقيق في الترفيع وزيادة الراتب.

ولم يعجبه أن يظلّ يحلم، فكلّ ما حوله يحفزه للكفّ عن العبث، وفعل شيء. فأمّه مثنيّة على نفسها حزناً، وأبوه صار قطعة من الجبل. ملتقى الثوّار، وشريفة. لقد برز الرمّان في صدرها، فلم تعد تلعب «الحبلة» مع بنات وأولاد القرية في الحارات، ولم تعد تحمل العجنة إلى المخبز، ولم تعد تظهر إلّا مع أبيها أو أمّها أو أحد أفراد عائلتها المقرّبين، وصار كلّ ما يؤكّد أنّها ما تزال تحبّه، تلك البسمة الرائقة الصافية كالماء المقطّر، وهذا يعني أنّ حبّهما أصبح ذا صبغة جدّية ليس للخيال مكان فيها. أمّه بحاجة للمصروف، وهو بحاجة له، وأبوه لن يمانع أيضاً في أخذ ما تيسّر، ولكي يخرج شريفة من وراء القضبان التي زرعها أهلها من حولها، لا بدّ له أن يتقاضى راتباً من عمل ما.

ومكتب البريد، كان أوّل مكان خطر له، والعمل فيه لا يتمّ بسهولة بالغة كشرب كوب ماء مثلاً، وإنّما على العكس، فلكي يكون موظّفاً له قيمته، ويجلس ببهاء وحيويّة خلف الطاولة الممتدّة على طول القاعة، لا بدّ من اجتياز اختبارات أقسى من شرب زجاجة زيت خروع من الحجم الكبير.

وما إن مرّ هذا بخاطره، حتّى كتب لشريفة كلّ شيء وبالتفصيل. قال لها عن حلمه الممتدّ إلى الوراء عبر السنين بالبذلة الزرقاء والبصطار والكاسكيت وعن نيّته للتقدُّم فعلاً لطلب العمل، ولكنّه يؤجّله لحين مجيء والده من الجبل. وقال لها كلاماً حلواً مطرّزاً بالورد والعطور عن المستقبل، وأفاض في وصف أشواقه وحبّه لها، وفي نقمته على أهلها الذين يحتجزونها كالعصفورة الدوريّة المغرّدة داخل

قفص من الفولاذ، (ولم يكن تسليم الرسالة مشكلة عويصة، فقد أعطاها لشقيقها الصغير، وأوصاه أن يكتم الأمر جيِّداً، لأنّه إذا لم يفعل ذلك، فإنّ الغولة ستأكله).

وعندما جاء والده، ذهب معه إلى مكتب البريد، بعد أن كتب طلباً بصيغة جميلة، وحلق ذقنه، وحاول أن يكون نظيفاً وأنيقاً بالقدر الذي تسمح به ملابسه التي ارتخت خيوط نسيجها من كثرة الاستعمال. ولم يكن رائد يخشى مقابلة المدير وحده، وإنّما فضّل اصطحاب أبيه، لكي يتّخذ الموضوع طابعاً أكثر حزماً وميلاً إلى الإنجاز والردِّ السريع.

كان المدير يرتدي نفس لباس الموظّفين، ولكن شرائط مغموسة بماء الذهب ملتفّة حول كمّي جاكتته هي التي تميِّز رتبته، وهو كبير الرأس ذو صلعة مصقولة بلا مسامات، حليق الشاربين، يضع نظّارة طبّيّة على عينيه، وله في أسفل ذقنه لغد متدفّق فوق ياقة الجاكتة المقفلة عند العنق، كما لا يتجاوز الخمسة والأربعين عاماً بأيّ حال. ودار الحديث بين أبيه والمدير، ورائد ينصت بأذنيه وقلبه وخلاياه لكلّ كلمة، بل لكلّ حرف وكل نحنحة. ويتأمّل بعينيه وعقله كلّ حركة أو إشارة أو التفاتة، صوت المدير دقيق كرأس إبرة، وينساب كمواء القطط، وصوت أبيه مدبّب كالصخر وينطلق من فمه بخشونة وسخونة كمدفع سريع الطلقات. ولكن عندما قال المدير إنَّ هناك من قدّم طلباً للعمل قبل رائد، خفت صوته وتضاءل، وسقطت مرارة مفاجئة على قلب رائد كسقوط الحامض المركّز على نتفة من القطن الرقيق الناعم. وطفق والده يحاول إقناع المدير بحاجة ابنه

للعمل، وأنّه فقير. و. و. ، ولكن لم تبد على وجه الرجل وكلامه ذرّة واحدة من اقتناع، لأنَّ هذا سيغضب المسؤولين (هكذا قال بالحرف الواحد)، ما اضطرّه للجوء إلى الرجاء كمحاولة قد تجدي، فمال صوته الخشن الساخن الهادر إلى الرقّة والضراعة، ثمّ تحوّل الرجاء إلى استجداء وتوسُّل، وبدا التأثّر واضحاً على المدير، فانكمش الجلد في جبينه على شكل قنوات متلاصقة، ونظر في راحتي يديه، ثمّ انتقل بعينيه بين رائد وأبيه، واستقرَّتا برهة على سقف الغرفة، وأخرج منديله من جيبه وتمخّط، وأشعل سيجارة، ثمّ وافق!.

وفي اليوم التالي، كان رائد يؤدِّي اختبار المعلومات العامّة، وقلبه يرقص نشوة وسروراً، وشعور بالخدر اللذيذ يمتزج مع كريّات دمه الحمراء. تماماً كخدر السيجارة الأولى (وقد ابتلع دخان السيجارة ذات مرّة)، ولم ير في الأسئلة صعوبة تذكر لا في التاريخ ولا في الحساب ولا الجغرافية ولا اللغة الانكليزية. وقبل أن يغادر غرفة الامتحان عرف أنّه ناجح، ولم يبق سوى الكشف الطبّي.

وهو لم يشك من علّة في حياته قطّ، وجسمه قوي، وعضلاته ليست مفتولة ولكنّها صلبة نوعاً ما، ولا يذكر أنّه سخن أو لازم الفراش كالمرضى، وكلّ ما يذكره أنّه أصيب بالحصبة وهو صغير، وبالزكام عدّة مرّات، وبعد أن أتمّ الطبيب كشفه، قال وهو يهزّ رأسه أنّه بحاجة لنظّارة طبّيّة لأن عينه اليسرى ضعيفة. ومع أنّ ضعف عينه أو عدمه لا يقدّم ولا يؤخّر شيئاً بالنسبة للعمل، إلّا أنّ ثمن النظّارة والحصول عليها خلال يومين أمر قد يؤخّر ويعرقل كلّ شيء.

كان يعرف جيّداً أنّ أمّه لا تملك فرشاً واحداً، فأرسلها تقترض جنيهاً من إحدى الجارات، ولّما عادت بدونه، فكّر أن يبيع شيئاً من «أثاث» البيت. فوجد أنّ ليس فيه قطعة (قطعة واحدة منفصلة) تساوي جنيهاً، لذا، فكّر ببيع قطعتين أو ثلاث أو أكثر، كبابور الكاز وإبريق الشاي والملاعق والسكينة مثلاً، لكنّه امتعض عندما تصوّر أن المشتري لن يكون أحداً من غير أهل القرية، وبما أنّه يعرفهم ويعرفونه، فمن العيب أن يعرض لوازم البيت ليبيعها لهم، بل هم أنفسهم لن يقبلوا الشراء منه إذا ما تمادى وفعلها. وخطر له أن يذهب إلى يافا ويبيعها هناك، إلاّ أنّه أفحم الخاطر وأسكته حينما خمّن مصاريف السفر. وتمنّى في تلك اللحظة أن تعرف شريفة مشكلته، لربّما أدركتها الحنّيّة وانتهت الأمور بسلام، لكنّه ليست لديه القابليّة لأن يطلبه منها، وأحسّ بصداع حارق يتمدّد داخل رأسه، ويوشك أن يحيل عظام جمجمته إلى نتف متناثرة، وكتم غيظه وضيقه وصمت.

ومرّت عدّة أيّام وهو يفكّر بصمت، لأوّل مرّة يفكّر بهذا الهدوء الحانق. ما معنى أنّه لا يملك جنيهاً؟ بل ما معنى أنّ الجارات كلّهنّ لا يملكن جنيهاً؟ وما معنى أنّ أباه في الجبل مع الثوّار؟ ولأوّل مرّة يجد نفسه أمام عالم سحري غريب كان غافلاً عنه. واجتاحته قشعريرة رقيقة كالحلم. وروى الحكاية لأبيه، فأبدى أسفاً عميقاً، وتأفف ولعن ثمّ تسمّرت عيناه في الجبل. وللم رائد أطراف شجاعته وقال له:

ـ «أبي.. أريد أن أذهب معك..»

كان يريد أن يشرح له رغبته بوضوح، ولكن صلابة وجه أبيه (بشاربيه اللذين تقف شعراتهما كالرصاص، وأنفه الشامخ المتحدّي، وعينيه البارزتين كعيني نسر) جعلته يختار أقلّ عدد من الكلمات. وظلّت عينا أبيه تنتقلان بمرونة زيتيّة بينه وبين الجبل، ورأى دمعتين امتدّتا على طول جفنيه السفليين، فأغمض عينيه برهة (ربّما ليمنع الدمعتين من السقوط) شعر رائد خلالها برهبة غارت في قاع صدره ونخرت في عظامه. وعندما فتح عينيه، قال بصوت ثابت كالجبل:

ـ «ما زلت صغيراً، والعمل مع الثوّار يتطلّب صبراً لا يعرفه إلاّ الرجال..»

ولأنّه يعرف كلّ كلمة يقولها أبوه، فقد آثر الصمت، وانسحب بعد لحظة واحدة، وحرص أن لا يراه أحد، وهو يدسّ رغيف خبز تحت حزام بنطلونه، وسار نحو الطريق الترابيّة المؤدّية إلى الجبل. وعندما وصل شجرة البلّوط الواقفة على طرف الطريق، توقّف، وثبّت الرغيف جيّداً تحت حزامه. ثمّ تسلّق الشجرة. كان منظر القرية كابياً حزيناً مع الغروب، والحلّة الغامقة التي تخلّفها الشمس بعد مغيبها، تخفي البيوت المبنيّة من الطين، وتهزم أسراب الذباب، وتدبّ النعاس في أجفان الأطفال ذوي العيون الغائرة والأنوف التي يسيل مخاطها دائماً. ولم يدرِ لِمَ تذكّر شريفة في تلك اللحظة (ربّما بسبب شجرة البلّوط نفسها التي كان أولاد وبنات القرية يلعبون تحتها)، ولم يدر أيضاً لِمَ تذكّر البذلة الزرقاء والكاسكيت والبصطار، وانزلقت من فمه بصقة لامست ورقة من الشجرة ثمّ استقرّت على الأرض. ونظر

إلى الطريق وقال لنفسه: «من هنا يمرّ الرجال». ولفتت انتباهه كتلة بشريّة تغذّ في السير نحو الجبل، فهبط إلى الطريق برفق، وشدّ يده على الرغيف، وسار خلف أبيه على رؤوس أصابعه.

٢ حزيران ١٩٦٧

أيوب الفلسطيني

ـ أ ـ بيت أيوب

هبط أيوب من الباص، في محطّته الأخيرة، وحمل حقيبته الممتلئة بالهدايا كامتلاء صدره بالهموم والشوق، وسار وسط الزحام.

كان أيوب يعرف حسن حلاوة، صاحب بسطة أدوات الزينة، على الرصيف الواقع خلف محطّة الباص.

كان أيوب يعرف حسن حلاوة، ويعرف بسطته قبل عشرات السنين. لا يدري عددها على وجه التحديد. ربّما كان ثلاثين سنة، أو خمساً وثلاثين، ولكنّها قريبة من مثل هذا العدد.

استوقف رجلاً يرتدي حطّة وعقالاً على رأسه، وسأله:

ـ هل تعرف حسن حلاوة؟

قال الرجل:

ـ لا أعرف شخصاً بهذا الاسم!

ـ لقد كان صاحب بسطة هنا، قبل أكثر من ثلاثين عاماً.

ابتسم الرجل، ونظر نحو أيوب بزاويتي عينيه قائلاً:

ـ منذ ثلاثين عاماً فقط؟

ارتبك أيوب وقال:

ـ منذ أن هاجرت من الوطن، لقد كان هنا خلف محطّة الباصات.

ضحك الرجل وقال:

ـ لكنّ هذه المحطّة لا يزيد عمرها عن خمس سنين. وربّما كنت تعني المحطّة القديمة في شرق المدينة.

سكت أيوب قليلاً، ثمّ تمتم:

ـ لا أدري.

ومضى الرجل في طريقه، ورفع أيوب حقيبته، وسار في الشارع، تائهاً غريباً، والمدينة كلّها تتنكّر له. كلّ شيء فيها تغيّر، إنّه عُمر، عمر طويل، مات فيه ناس، وولد فيه ناس، وتهدّمت فيه بنايات، وأقيمت بنايات، وأُزيلت فيه بسطات، وأنشئت فيه أكشاك. وارتفعت العمارات، حتّى كادت تناطح السحاب، وكثرت السيّارات وتزاحمت كي تجد الواحدة منها مكاناً لعجلاتها. حتّى محطّة الباص تغيّرت، ولولا أنّه يخشى الإفراط في قراءة وجوه الناس، وسحنة المدينة، لقال لنفسه إنّ ملامح البشر تغيّرت، وإنّ تقاسيم المدينة صارت باردة.

استوقف سيِّدة ترتدي سروالاً أنيقاً وسألها:

ـ هل تعرفين منزل أيوب الفلسطيني؟

قالت السيِّدة وهي تنظر في المناكير على أظافر يديها:

ـ اسم غريب! تقول أيوب الفلسطيني؟

قال أيوب:

ـ نعم.. أنا أيوب الفلسطيني. أبو صابر..

قالت السيِّدة:

ـ ليس في المدينة اسم كهذا.

قال أيوب:

ـ أنـا أيوب يـا سيِّدتي. وهـا أناذا في المـدينة كـما ترين. ولكنّي أسأل عن منزلي.

نظرت السيّدة نحوه نظرة متخمة بالدهشة:

ـ هذا أغرب شيء يحدث في حياتي!

وقهقهت قائلة:

ـ أيوب يسأل عن منزل أيوب! أليس هذا مضحكاً؟

قال أيوب بأسى:

ـ ليس مضحكاً، هو مُبْكٍ ومُميت.

وصمت السيِّدة وهي تقول:

ـ هذا شأنك!

وشعر أيوب بالإعياء، فجلس إلى جوار حقيبته، ومدّ رجليه على أرض الشارع. نظر نحوه طفل وسأله:

ـ هل تريد مساعدة؟

قال أيوب:

ـ وهل تقدر أن تساعدني؟

قال الطفل:

ـ قل لي ماذا تريد أوّلاً!

قال أيوب؟

ـ أريد أن أصل إلى بيتي. بيت أيوب الفلسطيني. هل تعرفه؟

قال الطفل:

ـ لا لا أعرفه. ولا أظنّ أنّ في المدينة اسماً كهذا.

ولم يعد أيوب قادراً على الكلام، فسكت، وقبل أن يهمَّ الطفل بالابتعاد عنه، سأله:

ـ أين تقع مقبرة الدينة؟

قال الطفل:

ـ أيّة مقبرة تريد؟

قال أيوب:

ـ وهل في المدينة مقابر كثيرة؟

قال الطفل:

ـ في المدينة مقبرة خاصّة للسكّان الأصليّين، وهناك مقبرة أخرى للغرباء.

قال أيوب:

ـ هذه مسألة محيّرة!

ـ وما المحيّر فيها؟

ـ لأنّني لا أعرف إن كانت هذه المدينة تعتبرني من سكّانها الأصليّين، أم غريباً عنها.

ـ ولكنّك حيّ. والمقابر للموتى!

عاد أيوب للسكوت مرّة أخرى، وظلّ ساكتاً إلى أن جاءه صوت الطفل قائلاً:

ـ هل تسمح لي بالذهاب؟

قال أيوب:

ـ كما تشاء.

قال الطفل:

ـ فأنا عاجز عن تقديم مساعدة لك.

قال أيوب:

ـ لقد عجز قبلك كثيرون.

وأشار أيوب إلى رجليه قائلاً:

ـ ولن ينفعني سوى هاتين الرجلين.

ثمّ أشار لإحدى يديه وأضاف:

ـ وهاتين اليدين.

ونهض أيوب، وحمل حقيبته الثقيلة، وراح ينوء بها في شوارع المدينة.

ـ ب ـ الحادث

كان الباص متمهِّلاً في سيره قرب الجسر، حين وقع الحادث. وكان الوقت ليلاً.

هذه كلّ المعلومات التي استطاع ضابط التحقيق أن يفوز بها، بعد جلسة طويلة مملّة مع اثنين وعشرين راكباً من المقعدين والمكفوفين والصمّ والعجزة.

قال الضابط، وقد بدا اليأس والانهاك على وجهه:

ـ نحن لا نريد منكم سوى شهادة صادقة فقط. فنحن نعلم أنّكم كنتم تستقلُّون الباص أثناء وقوع الحادث، وتفيد معلوماتنا، أنّكم كنتم قادمين من رحلة قريبة، قامت بها مؤسسة العجزة والمسنّين، وكنتم في طريقكم إلى الملجأ، أعني مقرّكم في المؤسّسة.

ومسح الضابط العرق عن جبينه وخلف أذنيه، بمنديل قماشي وأضاف:

ـ ولـذلك، فلن تـطال أيّاً منكم مسؤوليّـة، فهـل تتـطوّعـون الآن بتقديم إفاداتكم؟

لم يقل أحد شيئاً، وساد صمت طويل عميق، ثمّ تنحنح الضابط وقال:

ـ يؤسفني أنّني سأضطرّ لاستجوابكم واحداً واحداً.

قال السائق بحماس:

ـ وهل ستستجوبني أنا أيضاً؟

قال الضابط بعدم اكتراث:

ـ دعنا منك الآن، فإنّ لي معك حديثاً في نهاية التحقيق.

كان المسنّون جـالسين في أرجـاء الغرفـة، على هيئـة نصف دائرة، وبعض منهم كان جالساً على الأرض.

أشار الضابط للمسّن الأوّل قائلاً:

ـ أنت.

قال السائق:

ـ إنّه لا يسمع يا سيّدي.

قال الضابط:

ـ وكيف تتفاهمون معه؟

ـ بالصراخ والإشارات!

ـ اسأله إن سمع أو رأى شيئاً.

فأشار السـائق للمسنّ إشارات مختلفـة، فهزّ المسنّ رأسـه، مؤكّداً أنّه لا يفهم شيئاً ممّا يقوله السائق.

قال الضابط مشيراً للمسنّ الثاني:

ـ حسناً، وأنت ماذا رأيت؟ وماذا سمعت؟

قال المسن:

ـ سمعت صوتاً قويّاً، ربّما كان انفجاراً، أو طلقة ناريّة. لا أدري. لكنّي لم أرَ شيئاً، فكما تعلم، كان الوقت ليلاً.

قال الضابط مشيراً للمسنّ الثالث:

ـ شكراً، وأنت؟

قال المسنّ مشيراً إلى بطنه:

ـ لقد كانت عندي مشاكل داخليّة، هنا، وأظنّ أنّ ضجيج الباص حال دون سماعي شيئاً ممّا تتحدّثون عنه.. وقد كان الوقت ليلاً، فلم ألاحظ شيئاً غير اعتيادي.

ونهض المسنّ الرابع بصعوبة، ووقف على رجليه قائلاً:

ـ احترامي سيّدي، أنا ضابط سابق، وأعرف قيمة معرفة الحقيقة، لكنّ الشيخوخة، قاتلها الله، تجعل المرء يفقد بعض حواسه، فيخفّ السمع، ويخفّ البصر، ويخفّ الشمّ. إلى آخره. وللحقيقة، وكي تكون مطمئنّ البال، فإنّني أظنّ أنّ حادثاً ما قد وقع، لكنّي لا أملك أيّة معلومات يمكن أن أضيفها لجنابكم.

ظهر الضيق على وجه الضابط، وقال بحنق مكبوت:

ـ شكراً لك، فقد قلت كلاماً كثيراً، أخذ جزءاً من وقتنا دون جدوى.

وأشار الضابط لمسنٍّ يتّكئ على عصا، ويسند ظهره على المقعد، فهبَّ المسنّ قائلاً:

ـ يشهد عليَّ الله يا حضرة الضابط، أنّني كنت نائماً، فالنوم

سلطان، ولم أصح إلاّ على ضجيج في الباص.

ـ وماذا كان يقول زملاؤك؟

ـ كانوا يقولون إنّ ثمّة حادثاً قد حدث!

ـ وهل رأيت شيئاً ممّا حدث؟

ـ لا أبداً.

ـ وهل سمعت شيئاً ممّا حدث؟

ـ لا أبداً وحياتك!

ضرب الضابط الطاولة براحة يديه ضربة قويّة، ونهض فجأة صائحاً بالسائق:

ـ وأنت!؟ قل لي. أنت الشاب الوحيد في الباص. والمستيقظ الوحيد. ماذا رأيت؟ وماذا سمعت؟

تقهقهر السائق إلى الوراء قليلاً، وقال بخوف ظاهر:

ـ لقد تجاوزنا الجسر عندما وقع الحادث.

ـ ليس مهمّاً إن كنت قد تجاوزت الجسر أم لم تتجاوزه. المهمّ أن تصف لي الحادث، وأن تذكر لي بالتفصيل ماذا رأيت وماذا سمعت.

قال السائق وهو يفرك يديه ببعضهما:

ـ سيّدي، لقد سمعت صوتاً قوياً، صوتاً واحداً كالانفجار، فظننت في أوّل الأمر أنَّ خللاً ما أصاب الباص. فتوقّفت وسط ضجيج الأخوة الركّاب. وهبطت من الباص، وبحثت عمّا قد حلّ به، لكنّي لم أرَ شيئاً غير عادي، سوى أنّني لمحت بشراً يتزاحمون قرب

الجسر، وفي أيديهم مصابيح كهربائيّة، وينظرون نحو شيء ما في الأرض.

ـ ألم يصبك الفضول لمعرفة ما حدث؟

ـ قال لي رجل مَرَقَ من جانبي مهرولاً، إنّ رجلاً ما اسمه أيوب الفلسطيني قد أصيب بجراح.

ـ وهل حاولت نجدته؟

ـ لا فقد فكّرت بذلك في البداية، لكنّني كما تعرف، أحمل مسؤوليّة هؤلاء العجزة. ولا أستطيع أن أبتعد عنهم.

قال مسنٌّ اهتمّ، مقاطعاً:

ـ نحن الذين أجبرناه على السير. كان يريد أن يتركنا في هذا اللّيل، ويذهب.

قال السائق:

ـ نعم. هو كذلك.

قال الضابط للسائق:

ـ وهل عرفت الجاني أو سمعت عنه شيئاً؟

ـ لا لم أعرف الجاني، ولم أسمع عنه شيئاً.

قال الضابط بصوت قوي:

ـ ألا تظنّ أنّك دهسته بباص المؤسّسة؟

بدا الذعر شديداً على وجه السائق، وقال:

ـ أبداً لقد سمع الجميع صوت الانفجار.

وتهيّأ الضابط للخروج وهو يقول:

ـ تريدون أن نسجّل القضية ضدّ مجهول. لن نفعل ذلك.

وخرج الضابط قائلاً:

ـ كلّكم حاولتم قتل أيوب. فأنتم والجاني لا تختلفون في شيء. والساكت عن الحقّ ليس شيطاناً أخرس. بل هو شريك في القتل!...

ـ جـ ـ أمّ البطل

اقترب من الحارة وهو يدندن أغنية فيروز «يا مَنْ يحنُّ إليه فؤادي، هل تذكرين عهود الودادِ»، ثمّ كفَّ عن الدندنة، وتلاشت من نفسه الأنغام، وخفق الشوق في قلبه إلى المرابع القديمة، وانتابه الذهول، فوقف.

أهذه هي الحارة؟

هو يعرفها هكذا، مثلما هي الآن، لكن غيابه الطويل لعشرات السنين، لم يكن يعني شيئاً بالنسبة للناس والأبنية والشوارع والدخلات.

فهذا أبو عز الدين الحلّاق، ما يزال يطقطق بمقصّه فوق رؤوس زبائنه في الصالون، وما تزال تلك الشعيرات البيضاء في مقدّمة رأسه هي، هي. لم تزد ولم تنقص، وعبارة «صالون العودة» المكتوبة على الزجاج الأمامي للصالون، ما تزال كما هي مثلما عرفها قبل غيابه.

وهذا بائع الهريسة أبو جسن، يقف عند بوّابة المدرسة الابتدائيّة، عاصباً رأسه بمنديل أبيض متّسخ، ويضع على وسطه مريولاً، وينادي «طيّبة يا هريسة، بالقطر يا هريسة».

وهذا محمود الميكانيكي، منسدح تحت إحدى السيّارات، وصبي يمسك بمفاتيح ومفكّات ويقف إلى جواره.

وأبنية الصفيح، هي نفسها، والشوارع الترابيّة، والنفايات المبعثرة هنا وهناك، لم يطرأ عليها شيء يدل على تبدُّل أو تغيُّر.

حتّى أبو العبد بائع الدجاج، ما يزال كما هو قابعاً بين الأقفاص والبيض، وهو يدخن النرجيلة.

فهل يكون أيوب نفسه لم يتغيّر أيضاً؟ وهل يتوهَّم أنّه غاب عن الحارة في المخيَّم عشرات السنين؟

وخطا خطوة أخرى، وتابع سيره كمن يمشي على أرجوحة بين الغيوم السوداء الوحشيّة، وعاد يدندن «يا من يحنُّ إليه فؤادي»، إلى أن وصل باب المنزل.

نقر باب منزله بسبّابته، وانتظر جواباً، نفس الباب المائل الكالح، نفس أكرة الباب، و. وجاء صوت أمّ صابر متسائلاً عمَّن وراء الباب، فقال أيوب:

ـ أنا أبو صابر. افتحي يا أمّ صابر.

وانشقَّ الباب عن أمّ صابر، مرتبكة، تنطق ملامحها بالفرح والحزن، بالدمعة والابتسامة؛ وحين هَمَّ أيوب باحتضانها، تراجعت قليلاً، ووضعت يدها على فمها وزغردت. ثمّ بكت، ثمّ قعدت على الأرض بإعياء.

قال أيوب بحماس:

ـ ما لك يا أمّ صابر؟ الدنيا بخير!

قالت أمّ صابر بإنهاك:

ـ أعرف. أعرف أنّ الدنيا بخير. ولكنّ قلبي لا يحتمل كلّ هذا الفرح!.

ـ أيّ فرح يا امرأة؟
ـ ألم تعد أنت إليَّ؟
ـ آه.
وأرخت رأسها على الجدار وقالت:
ـ كل السنين التي فاتت، وأنا أجلس وراء الشبَّاك، أنظر إلى أوَّل الشارع بانتظار أن أراك عائداً أنت وصابر. وها أنت عدت.
ـ أنا عدت. لكن صابر.
ـ استشهد. أعرف. قرأت ذلك في عينيك.
ـ لقد كان صابر بطلاً يا أمّ صابر. يا أمّ البطل. وجميع الناس يتحدّثون عن بطولته!

وللمت أمّ صابر قواها، ورفعت يدها ثانية إلى فمها، وزغردت زغرودة مهدودة، ثمّ قالت:
ـ أزغرد لأنّني صرت أمّ البطل. ولأنّ فرح الدنيا كلّها في صدري.

وتمتم أيوب الفلسطيني لنفسه قائلاً: كلّ شيء بقي على حاله، دون تغيير أو تبديل، سوى أنّ صابر صار شهيداً.

ـ د ـ قبل النهاية

من يصدّق أنّ رجلاً يمكن أن يختفي، وتختفي كلّ إشارة تقود إليه؟ كيف يمكن أن يحدث هذا، والأرض لا تبتلع الناس، والكواكب الدائرة في أفلاكها لا تختطف البشر؟

وآخر معلومات أمّ صابر عن زوجها، أنّه في الأمسية السابقة على

اختفائه، غسل رجليه بإبريق الوضوء، وارتدى دشداشة قديمة بالية، وأطفأ نور الغرفة ونام.

وفي الصباح، لاحظت بلا اكتراث، خلوّ الفراش من أيوب، وعادت فأغفت لدقائق، ثمّ صحت، لتجد فراش أيوب ما يزال خالياً. فنهضت، وأصاخت بسمعها، علّها تسمع حركة أو صوتاً في البيت، لكنّ السكون كان مخيِّماً على كلّ شيء.

وهمّت بالكباء، وهمَّت بالخروج لتسأل أهل الحارة عنه، وهمَّت بشقّ ثوبها، وهمَّت بتشليخ وجهها، وهمَّت بالارتماء على الفراش ثانية، غير أنّها لم تفعل شيئاً من ذلك، حين رأت الدشداشة مكوّمة على الأرض، فعرفت أنّ أيوب قد ارتدى ملابسه وخرج.

سألت أبو العبد، بائع الدجاج، إن كان قد رأى أيوب، فقال لها إنّه فتح المحل قبل قليل ولم ير أيوب.

وسألت محمود الميكانيكي، إن كان قد رأى أيوب، فقال لها إنّه لا يعرف شيئاً عنه، لأنّه مشغول منذ الصباح الباكر.

وسألت بائع الهريسة أبو حسن، إن كان قد رأى أيوب، فقال لها إنّه كان منهمكاً ببيع الأولاد، ولا يعرف إن كان أيوب قد مرّ من جواره أم لم يمرّ.

وسألت أبو عز الدّين الحلّاق، إن كان قد رأى أيّوب، فقال لها، إنّه مشتاق للجلوس معه، ولو رآه لما جعله يمرّ دون أن يشرب فنجان قهوة.

وخرجت من المخيَّم إلى المدينة، وطافت شوارعها، بحثاً عن

أيـوب، إلى أن وصلت إلى كشك حسن حـلاوة. فـوجـدت ابنـه جالساً وراء أكوام الكتب والصحف، وفي عينيه غشاوة من الدموع.

سألته أمّ صابر:

ـ أين أبوك؟

قال ابن حسن:

ـ خرج قبل أن نصحو من النوم، وذهبت أمّي لتعيده إلينا.

واستدارت أمّ صابر، وسألت شجرة فوق الرصيف، إن كانت قـد رأت أيّوب، فقالت الشجرة متسائلة:

ـ أيّوب؟ أيّوب الفلسطيني؟

قالت أمّ صابر:

ـ نعم. أيّوب الفلسطيني.

قالت الشجرة:

ـ لمحته مارّاً من هنا، ويحمل في يده شيئاً كالبندقيّة.

ونظرت أمّ صابر إلى غيمة في السماء، وسألتها عن أيّوب، فقـالت الغيمة:

ـ رأيته يمشي كالعشّاق، وهو يحتضن بندقيّته، ويهتف باسم صابر.

وسألت أمّ صابر النسمة العابرة، إن كانت قد رأت أيّوب، فقالت النسمة:

ـ هو في كلّ مكان، لكنّه ذاهب إلى الوطن.

وعادت أمّ صابر، وحدّقت بزرقة السماء، فرأت «صـابر» تحفّ بـه الملائكة، ويمشي وسط موكب مهيب، فتهفت وقالت بفرح:

ـ صابر. ابني. حبيبي.

ظلَّ الموكب متابعاً المسير، فأضافت أمّ صابر:

ـ أنا أمّك. أنا أمّ البطل.

وأجهشت بالبكاء، وقالت بصوت مرتجف كشجرة في وجه الريح:

ـ خرج اليوم أبوك، وخرج معه حسن حلاوة، وخرج كثيرون قبل طلوع الفجر، وهم يحملون بنادقهم. ويهتفون باسمك...

ولوَّحت لموكب صابر مودِّعة، ثمَّ قفلت عائدة إلى المخيَّم.

صيف ١٩٨٢

في بيتي طائر

في اللّيل، في وقت متأخّر من اللّيل، سمعت طرقاً على باب منزلي؛ فتحت الباب، فوجدت رجلاً متعباً، كالمرضى أو أشباه الموتى. طلب كوب ماء ومبيت ليلة، فأدخلته، وسقيته ماء، وقدّمت له طعاماً، وهيّأت له سريراً، ونام.

في اليوم التالي، لم يتكلّم، ولم يخرج من المنزل. فاحترمت صمته، وبقيت ساكتاً أنا أيضاً، وقدّرت حاجته للطعام، فوفّرت له ثلاث وجبات على أنغام الموسيقى، ومضى اليوم. وفي اليوم الذي تلاه، قلت: لا بدَّ أنّه يحزم أمره للرحيل، فصنعت له فنجان قهوة، وفنجاناً آخر لي، وجلست إلى جواره حول طاولة الطعام.

قلت له:

ـ أنا لم أتعرّف على الأخ!

ظننت أنّه لم يسمع، فأعدت كلامي نفسه مرّة ثانية، فقال:

ـ أنا طائر!

فاستغربت جوابه، وتمالكت غضبي، وقلت:

ـ لكنّك بلا جناحين أو منقار أو ريش.

وعاد فسكت قليلاً، ثمّ أضاف:

ـ هذه أوصاف لم تعد مهمّة.

ورشف رشفة من فنجان القهوة وقال:

ـ أنا طائر مهاجر من وراء البحار.

ومنذ أن قال ذلك، بدأت «أستثقل» دمّ الرجل. وسألته عمّا إذا كان يرغب في إطالة إقامته في بيتي، فقال:

ـ نعم.

في اليوم الرابع، بدأت ملامح العافية تظهر على وجه ضيفي، وخرج من غرفة النوم قائلاً:

ـ أين مكتب البريد في مدينتكم؟

فسألته عن حاجته لمكتب البريد، فقال:

ـ أريد أن أبعث في طلب زوجتي وأولادي، كي يقيموا معي هنا.

فقلت:

ـ لكنَّك لم ترَ شيئاً في المدينة كي تبعث في طلبهم.

فقال وهو يخرج رسالة مغلَّفة من جيب البيجاما:

ـ ليس مهمّاً أن أرى المدينة، فنحن نعرفها من كتب الجغرافيا.

وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي يستعمل فيها ضيفي كلمة «نحن» بدلاً من «أنا»، فتطوَّر «الاستثقال» إلى كراهية لم أقدر على مقاومتها.

قلت له بضيق:

ـ ما دامت رؤية المدينة غير مهمَّة، فما هو المهمّ؟

قال بثقة واستعلاء:

ـ المهمّ شقّتك. إنَّها مريحة، وتتوفَّر فيها كلّ اللوازم التي نحتاجها للإقامة.

قلت:

ـ ولكنَّها شقّتي أنا، واللوازم لي!

ضحك الرجل الضيف ضحكة طويلة، ولم يعلّق بكلمة واحدة، ثمَّ قفل داخلاً إلى غرفة النوم، وخرج بعد لحظات وقد ارتدى ملابسه. وقبل أن يخرج سألني إن كنت سأبقى في البيت، فقلت له إنّني باق، فقال:

ـ على كلّ حال، إذا رغبت في الخروج فلا تقلق بشأني، فقد حصلت على نسخة من مفتاح الباب الخارجي، وجدتها في غرفة النوم.

وخرج، وتركني أضرب كفّاً بكفّ، وأفكّر جدّياً في التخلُّص من هذا الطائر الوديع، الذي فرض وجوده في البيت عدَّة أيّام.

في اليوم الخامس طلبت منه مغادرة المنزل، فرفض ضاحكاً ضحكته الطويلة المميَّزة.

في اليوم السادس، كرّرت الطلب، فغضب وصاح في وجهي قائلاً:

ـ إذا أعدت هذا الكلام مرَّة أخرى، سأكسر جمجمتك!

وأعدت الكلام نفسه في اليوم السابع، فأخرج من جيبه مسدّساً، وحشاه بالرصاص وقال:

ـ سأسامحك هذه المرَّة، لأنّك لا تعرف أنّني شريكك في عقد الإيجار.

وركضت مثل أرنب برّي نحو ملفٍّ لأوراقي الرسميّة، وفتحت على عقد الإيجار، فلم أجد له اسماً فيه، وقلت:

ـ ها هو عقد الإيجار، باسمي وحدي!

قال بخيلاء الطواويس:

ـ لكنَّ نسختي من العقد تقول إنّنا شركاء.

ومنذ ذلك الحين، أصبحنا شركاء في كلّ شيء في المنزل، أعني منزلي، إلى أن جاءت أسرته التي بعث في طلبها، فاستأذن منّي بالبقاء هو والأسرة فقط، لأنّ المنزل لم يعد يتّسع للجميع، فقلت له:

ـ ولكنّنا شركاء. شركاء بموجب نسخة العقد الذي بحوزتك.

قال:

ـ أبداً. العقد باسمي وحدي. وأستطيع أن أثبت ذلك أمام المحاكم.

وعاد فأخرج مسدَّسه مرَّة أخرى، وأمرني بالخروج الفوري، مفضِّلاً ذلك على الوقوف أمام المحاكم، فخرجت، وأوكلت قضيَّتي لمحامين، كانوا يفوزون بقرار من المحكمة يقضي بأحقيَّتي في البيت، لكنَّ المحكمة أشبعتني ورقاً وقرارات، وأنا ما أزال خارج بيتي.

١٩٨٣/٢/١٤

الحادثة المائة بعد الألف

استيقظ سكّان البنايات المتجاورة في مطلع الشارع، على زمامير سيّارات الشرطة وأضوائها الحمراء، فتجمّعوا مستطلعين الأمر بفجيعة مرسومة على الوجوه.

وصلت سيّارة الإسعاف، وشرع رجال الشرطة بالطلب من المتزاحمين أن يخلوا باب العمارة.

قال أحد السكّان:

ـ ولكنّنا نريد أن نعرف ماذا يجري.

قال شرطي:

ـ الحادثة المائة بعد الألف!

قال ساكن آخر وهو يهزّ رأسه بأسف:

ـ المتوحّشون أيضاً.

قال الساكن الأوّل:

ـ في كلّ يوم لهم ضحيّة.

قال الشرطي:

ـ لكن للباطل جولة.

خرج من البناية ممرّضان يحملان جثّة رجل على نقّالة. ودخلا بها من الباب الخلفي لسيّارة الإسعاف. ولحقت بهما امرأة تولول وتصيح وتلطم وجهها.

قال ساكن لآخر:

ـ قتلوه بنفس الطريقة.
ـ صار القتل بالمدية علامة ثابتة للمتوحِّشين.
قال الساكن الأوَّل:
ـ والغريب أنّهم لا يأخذون شيئاً من ممتلكات الضحايا.
قال الساكن الآخر:
ـ سيكون غريباً لو أخذوا شيئاً.

وصعدت المرأة وراء الجثّة، وانطلقت سيَّارة الإسعاف مفرّقة صفوف المتزاحمين. وصدر صوت من مكبِّر صوت في إحدى سيَّارات الشرطة، يرجو الأخوة المواطنين أن يعودوا إلى منازلهم ويخلدوا إلى الطمأنينة. فالتحرّيات جارية على قدم وساق.

أنا البطريرك

كان هذا قبل أن أصبح زهرة متفتّحة، فقد سألني معلّم الدين ذات مرّة:

ـ ما هي أسرار الكنيسة؟

واذكر أنّني قلت لنفسي: «وهل للكنيسة أسرار؟»، ثمّ وقفت بهدوء، وقلت له:

ـ لا أعرف!

بدا الاستياء واضحاً على وجه المعلّم، فالتمعت عيناه، واحمرّت أذناه، وقال بغيظ:

ـ لا تعرف أسرار الكنيسة، وتعتبر نفسك مسيحيّاً؟. ها.. «لا أعرف». تقولها ببساطة، وقد بُحَّ صوتي وأنا أشرح وأعيد الشرح. ولكن. ماذا أفعل لك؟

وظلّ غيظه يتصاعد، والكلمات تتلاحق، وأنا أنظر في المقعد، وأعبث بقلم في يدي. لم أعد أفهم شيئاً ممّا يقول، ولا أذكر سوى أنّه قال:

ـ من يراك، يظنّ أنّك بطريرك صغير بدون صولجان، وجهك ممتلئ، وبشرتك لامعة، وحركاتك بطيئة، ولكنّك لا تفهم، أتسمعني؟ لا تفهم. لا

وواصل كلامه حتّى قرع جرس انتهاء الحصّة، فخرج من الصفّ، وجلست في مكاني.

حدث هذا، قبل أن أصبح زهرة متفتِّحة في كـلِّ الفصول، تعيش في ركن من ساحة الدير. ومنذ ذلك اليـوم، صار الأولاد لا يـدعونني إلاّ باسم: البطريرك.

وقبل أن أصبح زهرة متفتِّحة جاء معلّم اللغة العربيّة، وقال لنا:

ـ افتحوا كتب المطالعة، واقرأوا فيها قراءة صامتة.

فتحنا كتبنا، وصرنا نقرأ دون أن نحرِّك شفاهنا. وفرغت من قراءة الـدرس قبل الآخـرين، ثمّ فتحت النافـذة وأخذت أنـظر إلى جـدار الكنيسة القديم، وأتأمّل كيف تنتشر النباتات الصغيرة فوق حجارته، وكيف تتقـافز العصـافير في فتحـات الجرسيّـة، وعلى قضبـان النوافـذ الحديديّـة، وكيف تنكسر أشعَّة الشمس عـلى الزجـاج الملوَّن بالأزرق والأصفر والنبيذي.

ـ ماذا تفعل أيّها البطريرك؟

فوجئت بالمعلِّم يقول لي ذلك، فالتفتّ إليه وقلت:

ـ انظر إلى العصافير والطحالب.

وبلعت ريقي ثمَّ أضفت:

ـ وأشعَّة الشمس المنكسرة على الزجاج!

فقال المعلِّم:

ـ وماذا فعلت بالقراءة الصامتة؟

قلت:

ـ لقد قرأت الدرس أمس، وقرأته الآن أيضاً.

قال:

ـ ومن يقرأ الدرس يفتح النافذة ويعبث على هواه؟

قلت:

ـ لست أعبث في شيء!

قال بحدَّة:

ـ أنت عنيد، اجلس مكانك هادئاً، واسكت.

قلت:

ـ إنّني هادئ.

قال:

ـ أنت عنيد، وجمجمتك بحاجة إلى تكسير. اخرج من الصفّ.

وخرجت إلى الساحة، ووقفت أنظر إلى زرقة السماء الصافية، معجباً بقدرة الشمس على إخفاء كلّ الكواكب.

وحينما انتهت حصّة المطالعة، جاء المعلّم وقال باستعلاء:

ـ كي تعود إلى الصفّ، عليك أن تقرأ اعتذاراً في مكبّرة الصوت ليسمعه الجميع.

قلت باستنكار:

ـ ولكنّي لم أذنب كي أعتذر.

قال المعلّم:

ـ إنّك صاحب رأس عنيد..

ثمّ أضاف بنبرات هامسة:

ـ كتبت لك نصّ الاعتذار، وليس فيه ما يعيب، مجرّد أسف عمّا بدر منك، وإعلان عن توبتك الصادقة، وإيضاح لنيّتك في إطاعة معلّميك دائماً، وتنفيذ أوامرهم!

قلت بضيق:

ـ أنا لم أذنب، ولذلك لن أعتذر!

قال هو الآخر بضيق:

ـ إذا كنت مصرّاً على عنادك، فسأكون مضطرّاً لتحويل موضوعك إلى الإدارة، وأنت تعرف ماذا سيحلُّ بك.

قلت بعدم اكتراث:

ـ ليكن ما يكون!

كانت الغرفة مظلمة في عزِّ النهار، فقد دفعني المدير إلى داخلها وأغلق الباب. هبطت ثلاث درجات، ثمَّ جلست على الأرض.

في البداية، لم أرَ شيئاً. وبعد قليل بدأت أرى عيوناً مبحلقة، وأسمع أصواتاً غريبة، تبدو كأنّها أصوات حيوانات صغيرة تقضم خشباً، وتنطّ فوق الأرض، والجدران.

كدت أصيح بأعلى صوتي، طالباً النجدة، لكنّي آثرت الصمت.

كدت أصيح من الرعب الذي نخر في مفاصلي، من هذه العيون المبحلقة، وهذه الأصوات الغريبة، لكنّي آثرت الصمت.

وبعد وقت قصير، سمعت الباب يفتح، وشيء من النور يدخل، لكنَّ ما في الغرفة ظلَّ ملفوفاً بالظلمة.

سمعت صوت المدير يسألني:

ـ هل غيَّرت رأيك؟

قلت:

ـ رأيي لن يتغيّر.

قال:

ـ أنت ولد وقح.

ودنا منّي، واقتادني من يدي، قائلاً:
ـ غرفة الجراذين لم تجعلك تفهم معنى الطاعة.
ثمَّ قال وأنا أركض إلى جواره:
ـ امش أيُّها الكلب، وسأداويك.
في ركن من ساحة مدرسة الدير، وضع المدير كومة كبيرة من الحطب، وصبَّ كازاً فوقها، وأخرج كبريتته من جيبه ثمَّ قال لي:
ـ لك أن تختار الآن بين الموت والاعتذار.
قلت له:
ـ أختار الموت.
قال بحقد كان يطلّ من عينيه:
ـ ماذا تطلب قبل أن ألقي بجسدك في النار؟
لم أفكِّر كثيراً قبل أن أقول:
ـ أريد أن أتأمّل العصافير والنباتات الصغيرة وأشعّة الشمس.
قال:
ـ لا نسمح بهذا.
قلت:
ـ إذن، لا أريد شيئاً.
وعندما ألقي بجسدي في النار، كان التلاميذ يخرجون من صفوفهم، وينظرون إليّ بصمت وفجيعة.
حدث هذا، قبل أن أصبح زهرة متفتِّحة.
وعندما أصبحت زهرة نبتت من الرماد، لتبقى متفتِّحة في كلّ الفصول، عاد الأولاد يلعبون في ساحة مدرسة الدير، ويذكرونني عندما أهمس في آذانهم: أنا البطريرك.

٢٩ ـ ٤ ـ ١٩٧٨

سائق الشاحنة

فوجىء سائق الشساحنة، وهو يسير بسرعـة قصوى، فـوق طريق الأسفلت الممتدّ في الصحـراء، بـأحـد الـرعـاة يقف أمـام مقـدِّمـة الشاحنة.

كان الراعي الشاب، يريـد للشاحنـة أن تقف، حتّى تجتاز أغنـامه الطريق إلى الجهة الأخرى، إلّا أنّ السائق فوجىء بوجـوده، فلم يعد لديه الوقت الكافي لتفادي الحادث، فضربته الشاحنة بكلّ اندفاعهـا، ما جعل الشاب يرتفع قليلاً في الهواء، ثمَّ يتدحرج على الأرض.

وكانت الشاحنة ما تزال مندفعة، فلحقت بكومة جسده، وعـبرت عجلاتها العريضة العالية فوقها، قبل أن تتوقَّف نهائيّاً.

وما إن استطاع السائق السيطرة على الشاحنـة، حتّى كان في شبـه غيبوبة، ويشعر أنّ ماء بارداً قد اندلق على ظهره.

رجع بالشاحنة إلى الوراء، فداس على جسد الراعي مرّة ثانية، مـا جعل الفزع يندلع في كلّ بدنه، ويرشح من مسامـات جلده، فتوقّف عن الـرجوع، وتقـدَّم إلى الأمام مسـافة طـويلة، فأحسَّ أنّـه يـدوس الجسـد المغطّى بـالملابس والـدّم، إلّا أنّه لم يتـوقَّف هذه المـرَّة، وسار بسرعـة قصـوى من جـديـد، ولكن بقلق وتـوتّـر، وهـو يتـوهَّم، أنّ عشرات من سيَّارات الشرطة تـطاردە، فصار يمشي بشـاحنته في وسط الشـارع، كي يمنع أيّ سيّـارة عن تجـاوزه، ثمَّ وجـد فتحـة منـاسبـة

للمرور نحو تراب الصحراء، فدخل منها، وسار داخل الغبار مسافة كبيرة، حتّى وقفت الشاحنة فجأة.

لقد انتهى الوقود، والصحراء واسعة بلا حدود. شعر بجفاف في حلقه، فبحث عن مطرة الماء المعلّقة على الباب، فلم يجدها، ثمَّ عاد ونظر في كلّ الاتجاهات من حوله، فلم يعثر على شيء سوى السراب.

ولم يعد يعرف أين هو، وكيف يمكن أن يتخلَّص من هذا المأزق. فليس هناك أمل في العثور على لقمة طعام، أو حتّى نبتة صغيرة في الصحراء.

وفي النهاية، اختار أن يترك الشاحنة، ويمشي على قدميه في استقامة واحدة نحو أيّ اتجاه.

١٩٧٧/٧/١٣

رجل في القاعة

هل هي الصدفة التي قادته إلى هذا المكان، أم أنّه وصل إلى هنا عن طريق الخطأ، أم أنّ هناك ترتيباً مسبقاً من جهة ما، لدفعه إلى هذه القاعة الواسعة المزدحمة بالبشر؟

لم يعرف السبب الذي جاء به، وظنَّ أوّل الأمر أنّها حالة نسيان أو فقدان ذاكرة يمرُّ بها، فهو لا يذكر من ماضيه شيئاً، كما لا يفهم شيئاً ممّا يراه وممّا ينتظره!

وتردّد في الدخول، فوجوه الناس لم يرها من قبل، بل لم ير ما هو قريب الشبه منها، والرقصات التي يؤدّيها بعضهم كانت غريبة، مثيرة لدهشته. ثمَّ إنّه كان يخشى أن يقف الناس دفعة واحدة في مواجهته، ويسألوه عن سبب مجيئه، فلا يستطيع أن يقنعهم بأنّه لا يعرف لماذا جاء وكيف جاء، فيكون موقفه مرتبكاً ومحرجاً.

ضغط براحة يده على جبينه، وكأنّه يريد أن يعصر رأسه، أو يستخرج منه فكرة واحدة مفهومة. وحدَّث نفسه بأنَّ الابتعاد عن هذا المكان، هو طريق الخلاص الوحيدة من الذاكرة المفقودة والأشياء المبهمة. وهتف بصوت مسموع:

- أبتعدُ عن هذا المكان إلى أين؟

وبلع ريقه وهتف مرَّة ثانية:

- إلى أين؟ إلى أين؟

وفجأة، وضع يده على فمه، وندم لأنَّ صوته كاد يلفت الانتباه إلى وجوده، غير أنَّ الناس بقوا منهمكين بالضحك والشرب والرقص والثرثرة والتهام الفواكه والحلويات، والاستماع لموسيقى صاخبة، فالتفت خلفه فلم ير شيئاً قطّ، وفرك عينيه بأصابعه، وعاد يحملق حوله مرَّة ثانية، فلم ير شيئاً، وظنَّ أنَّه يحلم، وأنَّ ما يراه ليس سوى كابوس ثقيل يجعل الأنفاس تضيق. غير أنَّه عاد والتفت إلى القاعة، ووضع رجله داخلها، ومشى بتردّد مثل متسلّل، وهو يتوجّس من عاقبة رؤية الناس له، لكنَّ كلّ شيء بقي على حاله، وظلَّ الراقصون يرقصون، وظلَّت الموسيقى تصخب، وظلَّ الضاحكون والثرثارون منهمكين في الضحك والثرثرة، ويلتهمون الحلويات والفواكه، ويشربون ممَّا في الكؤوس التي يحملونها في أيديهم!

وشجّعه ذلك على الدخول إلى وسط القاعة، والحملقة في الوجوه، وفي كلّ ما يجري، وقال لنفسه:

ـ إنَّهم لا يرونني! فهل أنا روح لا يراها إنسان؟ أم أنَّ ما أراه ليس سوى حلم نائم؟

وأجفل من صراخ حاد، وأصوات مختلطة وتصفيق صدر فجأة عن المجتمعين في الموقع المتوسِّط من القاعة، ثمَّ داهمه عدد من الرجال والنساء، وحملوه على أكتافهم وهم يردّدون معاً:

ـ لقد سمعنا ما قلته لنفسك. وكلّ واحد منَّا قال لنفسه مثل هذا الكلام قبل دخوله هنا.

وسكت الجميع باستثناء سيِّدة، قالت:

ـ لن نحرمك من فرصتك.

قال رجل:
ـ سنعطيك نصيبك.
قال رجل آخر:
ـ تَوَسَّمْنَا فيك الذكاء.
قال رجل ثالث:
ـ سنقدِّمك إلى زعيمنا.
قالت سيِّدة ثانية:
ـ الإنسان اجتماعي بطبعه، ولا يصحّ أن تبقى وحيداً.

وعندما دنا الرجال والنساء من رجل مهيب، لامع الوجه، يرتدي زيّاً لا يلبس مثله الآخرون، أنزلوه عن الأكتاف.
قال الرجل المهيب:
ـ أريدك أن تكون وزير الشراب.
وسكت قليلاً ثمَّ أضاف:
ـ أو وزير الحلويات.
وخطر له أنَّه جائع، فقال:
ـ أكون شاكراً لك لو جعلتني وزير الفواكه والحلويات.
قال الرجل المهيب:
ـ أنا موافق.

وضجَّت القاعة بالتصفيق، واختلطت الأصوات بضجيج الموسيقى، واقتاده أحد الرجال إلى كرسي الوزراة.
شرع بالتهام حبَّة كمثرى، ثمَّ أكل قطف عنب، وبرتقالة مثلَّجة،

وقطعة حلوى، فشعر بالارتياح والطمأنينة، وصار يوزِّع الفواكه والحلويات لمن يحتاج.

جاء الرجال والنساء الذين حملوه على الأكتاف، وحملوه عن كرسيّه، وأخذوه إلى الرجل المهيب مرَّة ثانية.

قال الرجل المهيب:

ـ أنت متّهم بالإساءة للأمانة.

قال:

ـ وكيف كان ذلك؟

قال الرجل المهيب:

ـ عندما أرضيت حاجاتك قبل حاجات غيرك.

وأضاف:

ـ ولذلك، فأنت معزول.

لم يقل شيئاً، لأنَّه يعرف أنَّه لا يملك أن يقول شيئاً، وانسحب.

ظلَّ يدور بين المجتمعين والمتزاحمين، ولا أحد يلتفت إليه، جاع، وصرخ يناشد ضمائر الناس قطعة حلوى، فلم يسمعه أحد.

وبدأ يبحث عن باب القاعة، وطال بحثه، إلى أن رأى باباً آخر، فتسلّل منه بتردّد مثلما دخل.

١٩٨٠/٧/١٩

وأنا أحبّك أيضا

هو: (ناظراً إلى السماء) الطقس جميل هذا اليوم.

هي: (ناظرة إليه) لا بأس، لا بأس به، نعم، إنّه جميل!

هو: لماذا تقولين «لا بأس»، وأنت تعرفين أنّه جميل؟ هكذا أنت منذ أن عرفتك لأوّل مرّة.

هي: (تنظر إليه مستفسرة).

هو: (مبتسماً) أتذكرين لقاءنا الأوّل؟

هي: (تبتسم وتطرق برأسها).

هو: أتذكرين؟

هي: طبعاً، طبعاً، وهل أستطيع أن أنساه؟

هو: (ساهماً) كان لقاءً لا يُنسى، رغم مرور زمن طويل. طويل جدّاً. لعلّه (ينظر إليها) يزيد على خمسين عاماً.

هي: (تهزّ رأسها) تقريباً.

هو: إنّه زمن طويل حقّاً، ويزيد على خمسين عاماً فعلاً.

هي: لا إنّه أقل من خمسين. احسب جيِّداً.

هو: (يضحك) لا تحبِّين أن تعرفي أنّك كبرت! شاب شعرك كلّه، واستبدلت أسنانك كلّها بأسنان اصطناعيّة، وظهرت التجاعيد في كلّ أنحاء وجهك، وتغضّن الجلد على يديك، ومع ذلك لا تحبِّين أن

تعترفي بذلك! هكذا أنت. تحبِّين الحقيقة أو ثلاثة أرباعها أو أربعة أخماسها، لكنَّك لا تحبِّينها كلّها!

هي: (باستنكار) أنا؟

هو: (بالتأكيد) نعم أنت!

هي: إنَّك تتجنَّى عليّ. طول عمرك وأنت تتجنَّى عليَّ!

هو: أتذكرين لقاءنا الأوَّل؟

هي: آه. أذكره. طبعاً أذكره.

هو: أتذكرين ماذا حدث في هذا اللقاء؟

هي: (متراجعة) أيّ لقاء تعني؟

هو: اللقاء الأوّل.

هي: هل تقصد لقاءنا في بيت جيران أهلي!

هو: لا لا أقصد هذا. فقد التقينا عند جيران أهلك عشر مرَّات أو عشرين مرَّة. لا أعرف. لست أقصد هذا، وإنَّما أقصد لقاءنا الأوَّل. لقاءنا الأوَّل. هل نَسيْتِ؟

هي: (تضع يدها على وجهها وتنظر إلى الجهة الأخرى بخجل) آه. آه. تذكَّرت.. (تلتفت إليه) يا ملعون. تذكَّرت اللقاء الذي تعنيه. (تضحك وتستدير عنه مرَّة ثانية).

هو: قدَّمت لك ضمّة ورد.

هي: وردة واحدة.

هو: وقلت لك إنّني أحبّك.

هي: قلت لي إنَّك تظنّ أنَّك تحبِّني.

هو: فقلت لي أنت ما تزالين تفكِّرين فيما إذا كنت تحبِّينني أم لا

هي : لا قلت لك إنَّ كلامك سابق لأوانه. فقد كنت في ذلك الوقت صغيرة على الحبّ.

هو: (ساهماً) في ذلك اليوم، أعطيتك ضمّة الورد الحمراء.

هي : (مقاطعة) وردة واحدة بيضاء.

هو: ودفَعْتُكِ إلى الجدار. فقد كنَّا واقفين كما تعلمين.

هي : (مقاطعة) أتظنّ أنّنا كنَّا واقفين؟

هو: دفعتك إلى الجدار، إلى أن التصق ظهرك بـه، وطويتك بين ذراعيَّ.

هي : (تستدير بخجل).

هو: ورحنا في جحيم لذيذ من القُبَل.

هي : يبه. ولماذا تقول ذلك؟

هو: الجدار ملتصق بظهرك. وأنا ملتصق بك.

هي : اسكت.

هو: قلت لك يومها، قلت لك ألف مرَّة إنَّني أحبّك. أمَّا أنت، فقد كنت تقولين لي إنّك لم تتبيَّني مشاعرك نحوي بعد.

هي : قلت لك إنَّني كنت صغيرة على الحبّ في ذلك الوقت!

هـو: ومرَّ عـلى لقائنـا الأوّل نصف قرن، ولم أسمـع منـك كلمـة «أحبّك» كاملة.

هي : قلتها لك كثيراً.

هو لكنَّها لم تكن كاملة.

هي : إنَّك تتحدّث عن نصف قرن من الزمان، ومع هذا، فإنَّـك ما تزال لا تعرف إذا كنت أحبّك أم لا

هو: (ساخراً) ربّما لم تتبيَّني مشاعرك نحوي بعد!

هي: يا الله! ما هذا الكلام؟ إنَّك لم تتغيّر في شيء منذ أن التقينا.

هو: (مستفهماً) عند الجدار؟

هي: لا بل إنَّك لم تتغيّر في شيء منذ أن التقينا عند جيران أهلي.

هو: كيف؟ ما الذي لم يتغيَّر فيَّ؟

هي: عندما رأيتك أوّل مرَّة، رأيت فيك شاباً وسيماً يخفق له القلب.

هو: وخفق قلبك؟

هي: تقريباً.

هو: (بغضب) تقريباً. تقريباً. ملعون أبوها هذه الكلمة. كلّ شيء عندك ناقص أو مُحيِّر. هل هناك قلب في الدنيا يخفق بشكل تقريبي؟ إمَّا أنَّه يخفق، وإمَّا أنَّه لا يخفق.

هي: ولماذا غضبت هكذا؟ سأطمئنك. لقد خفق قلبي في صدري منذ أن رأيتك أوَّل مرَّة عند جيران أهلي.

هو: آه. قولي ذلك من غير أن تثيري أعصابي.

هي: ولعلمك، فقد ازداد خفقانه في المرَّات التالية.

هو: وفي اللقاء عند الجدار. في ذلك اليوم. هل ازداد خفقان قلبك أكثر.

هي: (بخجل) يعني.

هو: (بغضب) هل ازداد أم لا لم أعد أحتمل هذه الكلمات. لم أعد أحتمل «يعني» و«تقريباً» و. و.

هي: عندما التقينا عند الجدار، آه. (تسكت).

هو: ماذا حدث لك عندما التقينا عند الجدار؟

هي: أصابني إحساس غريب.

هو: (مستوضحاً) مزعج؟

هي: لا لا أقول إنّه مزعج. ولكنّه غريب.

هو: (مستوضحاً) لذيذ؟

هي: ربّما. ربّما. لكنّه غريب.

هو: ما وجه الغرابة فيه؟

هي: لم أشعر من قبل بما شعرت بـه ذلك اليـوم. (تبتسم) لقد كنت ملعوناً. وكنت أنا بريئة.

هو: لم أفهم شيئاً!

هي: آه. لم تفهم شيئاً. وأظنّ أنّك لن تفهم الإحساس الذي استولى عليَّ.

هو: كيف أفهمه وأنت لا تقـولين إلاّ إنّـه إحساس غـريب؟ كيف تتوقّعين أن أفهم كلاماً غامضاً كهذا؟

هي: أنت تسألني إن كان خفقـان قلبي قد ازداد يـوم التقينا عنـد الجدار.

هو: نعم.

هي: هـل تصدِّق أنّني شعـرت طوال الـوقت الذي كـان ظهـري ملتصقاً فيه بالجدار، أنَّ قلبي قد طار من بين ضلوعي، أو أنّه تـوقّف عن الخفقان؟ هل تصدِّق؟

هو: أصدِّق. لأنّني شعرت بمثل ذلك. أصدِّق.

هي: وإلى اليوم. إلى اليوم، ما أزال. (تسكت).

هو: ما تزالين ماذا؟

هي: (تدير وجهها عنه بخجل) ما أزال إلى اليوم أشعر أنَّ قلبي يطير أو يكفُّ عن الخفقان، كلَّما لمست يدك أو نظرت في عينيك.

هو: يا الله. كم أنت رائعة مثل هذه السماء العظيمة.

هي: (تلتفت إليه ناظرة في عينيه) فأنا أحبّك.

هو: (يدنو منها ويضع يده على فمها). لا تقولي «تقريباً» أو «ربّما» أو «يعني». (يعود إلى وضعه السابق).

هي: فأنا أحبّك. إنَّها خلاصة العمر. أقولها لك في كلمة واحدة. أحبّك. أحبّك.

هو: وأنا أحبّك أيضاً. أحبّك.

١٩٨٨

صدر للمؤلّف

١ ـ «ثلاثة أصوات»
مجموعة قصصيّة مشتركة ـ عمّان ١٩٧٢، المطبعة الأردنيّة.

٢ ـ «لماذا بكت سوزي كثيراً»
مجموعة قصصيّة ـ عمّان ١٩٧٣، المطبعة الأردنيّة.

٣ ـ «ممنوع لعب الشطرنج»
مجموعة قصصيّة صدرت عام ١٩٧٦ ـ عمّان، المؤسّسة الصحفيّة الأردنيّة.

٤ ـ «السلحفاة والأطفال»
مجموعة مترجمة من حكايات الشعوب للأطفال ـ عمّان ١٩٧٩، رابطة الكتّاب الأردنيّين.

٥ «من الفراشة الملوّنة إلى الطيور المهاجرة»
مجموعة قصص للأطفال صدرت عام ١٩٨٠ ـ عمّان، وزارة الثقافة والشباب.

٦ ـ «أنا البطريك»
مجموعة قصصيّة صدرت عام ١٩٨١ ـ عمّان، رابطة الكتّاب الأردنيّين.

٧ ـ «البرميل»
مجموعة قصصيّة صدرت عام ١٩٨٢ ـ عمّان، وزارة الثقافة والشباب.

٨ ـ «يوميات فرحان فرح سعيد»

مقاطع من حياة مواطن ـ صدرت عام ١٩٨٢ ـ عمّان، دار الأفق الجديد.

٩ ـ **«وطن العصافير»**

مسرحيّة من فصل واحد للأطفال، صدرت عام ١٩٨٢ ـ عمّان، دار الأفق الجديد.

١٠ ـ **«أوراق في الفن»**

مجموعة مقالات في الفن ـ صدرت عام ١٩٨٥ ـ عمّان، رابطة المسرحيّين الأردنيّين.

١١ ـ **«أيّوب الفلسطيني»**

مجموعة قصصيّة صدرت عام ١٩٨٩ ـ عمّان، دار الشروق.

١٢ ـ **«ليالي الأنس»**

في تجربة الكاتب القصصيّة ـ صدرت عام ١٩٩٠ ـ عمّان، مكتبة عمّان.

١٣ ـ **«حديث مع أميمة»**

في أدب الأطفال الشعبي الأردني ـ عمّان، دار جاد.

الفـهـرس

فخري قعوار وهذه المختارات	٥
الشرف	١٥
حسبنا الله	١٨
مشهد	٢١
رأس البقرة	٢٤
الابريق	٢٧
المطاردة	٣٠
موت رجل ما	٣٤
الثأر	٣٧
بائعة الحليب	٤٠
الأم	٤٣
التحقيق	٤٥
اليوم خمر وغداً	٥٠
زوجة قاسم	٥٣
ذو القرنين	٥٦
القندلفت	٥٩
حلم حارس ليلي	٦١
لا وقت للموت	٦٤

الكلب	٧٤
ممنوع لعب الشطرنج	٨١
شجرة معرفة الخير والشر	٨٥
مغارة السنديانة .	٩٢
المكّوك .	٩٩
صفر على الشمال	١٠٤
الرجال يمرُّون من هنا	١١١
أيوب الفلسطيني	١١٨
في بيتي طائر	١٣٣
الحادثة المائة بعد الألف .	١٣٧
أنا البطريرك	١٣٩
سائق الشاحنة	١٤٤
رجل في القاعة	١٤٦
وأنا أحبّك أيضاً	١٥٠
الفهرس .	١٥٩

«حين اقترب منه استوقفه أبو علي قائلاً:
ـ هويّتك؟
قال الشابُّ من خلف لثامه:
ـ لا أحمل هويّة.
قال أبو علي:
ـ فُكَّ لثامك، ودعني أرى وجهك.
قال الشابُّ من خلف اللّثام أيضاً:
ـ وما شأنك بي أو بلثامي؟ اتركني في حالي.
لوّح أبو علي بالعصا، وقال:
ـ أنا مسؤول عن أمن هذا الشارع».

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١١٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت